بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحج

مقدمة :

اختلف هل هي مكية أو مدنية .

فقيل : مدنية .

وقيل : مكية .

قال الشوكاني: قالَ القُرْطُبِيُّ وقالَ الجُمْهُورُ: إنَّ السُّورَةَ مُخْتَلِطَةٌ، مِنها مَكِّيٌّ، ومِنها مَدَنِيٌّ. قالَ: وهَذا هو الصَّحِيحُ. قالَ العَزِيزِيُّ: وهي مِن أعاجِيبِ السُّورِ نَزَلَتْ لَيْلًا ونَهارًا، سَفَرًا وحَضَرًا، مَكِّيًّا ومَدَنِيًّا، سِلْمِيًّا وحَرْبِيًّا، ناسِخًا ومَنسُوخًا، مُحْكَمًا ومُتَشابِهًا .

قال الآلوسي: والأصح أن سورة الحج مختلطة فيها آيات مدنية، وفيها آيات مكية، وإن اختلف في التعيين، وهو قول الجمهور.

اسمها :

سورة الحج .

وليس لهذه السورة اسم غير هذا.

وهي السورة التي انفردت بسجدتين .

أغراضها :

قال البقاعي : مقصودها الحث على التقوى المعلية عن دركة الاستحقاق للحكم بالعدل إلى درجة استئال الإنعام بالفضل ، في يوم الجمع للفصل ، وأنسب ما فيها لذلك الحج وهو ظاهر (بسم الله) الذي اقتضت عظمته خضوع كل شيء. أ

وقال ابن عاشور : ووجه تسميتها سورة الحج أن الله ذكر فيها كيف أمر إبراهيم عليه السلام بالدعوة إلى حج البيت الحرام ، وذكر ما شرع للناس يومئذ من النسك تنويها بالحج وما فيه من فضائل ومنافع ، وتقريعا للذين يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام وإن كان نزولها قبل أن يفرض الحج على المسلمين بالاتفاق ، وإنما فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة وفي سورة آل عمران.

(يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)) .

[الحج : ١-٢] .

==========

(يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ) افتتح الله عز وجل هذه السورة بالوصية لجميع الناس بتقوى الله.

قال الشوكاني : أي احذَرُوا عِقَابَهُ بِفِعْلِ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَلَفْظُ «النَّاسِ» يَشْمَلُ جَمِيعَ الْمُكَلَّفِينَ مِنَ الْمَوْجُودِينَ وَمَنْ سَيُوجَدُ .

وقد جاءت آيات كثيرة تأمر بتقوى الله:

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

فالتقوى هي وصية الله لجميع خلقه، ووصية رسوله لأمته.

كان ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً.

ولما خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع يوم النحر وصى الناس بتقوى الله وبالسمع والطاعة لأئمتهم.

ولما وعظ الناس كأنها موعظة مودع قال: أوصيكم بتقوى الله.

وقال لمعاذ: اتق الله حيثما كنت.

في هذا الحديث دليل على وجوب تقوى الله في السر والعلن ومراقبته سبحانه لقوله (اتق الله حيثما كنت) حيث يراه الناس وحيث لا يرونه.

إن تقوى الله في الغيب، وخشيته في السر، دليل كمال الإيمان، وسبب حصول الغفران، ودخول الجنان، بها ينال العبد كريم الأجر وكبيره.

قال تعالى (إنما تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيم).

وقال تعالى (إن الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِير).

وقال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ. هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ. مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ. ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ. لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيد).

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه (أسألك خشيتك في الغيب والشهادة).

وخشية الله في الغيب والشهادة من المنجيات، كما قال ﷺ (ثلاث منجيات، وذكر منها: خشية الله في السر والعلن).

وقال الشافعي: أعز ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف.

وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوتُ ولكنْ قل عليّ رقيب

ولا تحسبنّ اللهَ يغفلُ ساعةً ... ولا أن ما يخفى عليه يغيبُ

وقال الشاعر:

إذا خلوت بريبة في ظلمة ... والنفس داعية إلَى الطغياني

فاستحي مِن نظر الإله وقل لها ... إن الذي خلق الظلام يراني

قال ابن رجب رحمه الله: وفي الجملة، فتقوى الله في السر هو علامة كمال الإيمان، وله تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبه الثناء في قلوب المؤمنين.

وقال رحمه الله في شرح حديث عمار: فأما خشية الله في الغيب والشهادة، فالمعنى أن العبد يخشى الله سراً وإعلاناً وظاهراً وباطناً، فإن أكثر الناس يرى أنه يخشى الله في العلانية وفي الشهادة، ولكن الشأن في خشيته في الغيب إذا غاب عن أعين الناس، وقد مدح الله من يخافه بالغيب:

قال تعالى (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ).

وقال تعالى (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ).

وقال تعالى (لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ).

ومن هنا عظم ثواب من أطاع الله سراً بينه وبينه، ومن ترك المحرمات التي يقدر عليها سراً.

فأما الأول: فمثل قوله تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ... فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

قال بعض السلف: أخفوا لله العمل فأخفى لهم الجزاء.

وفي حديث السبعة الذي يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) متفق عليه .

وأما الثاني: فمثل قوله ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله).

– التقوى مأخوذة من الوقاية، وهي: أن يجعل الإنسان لنفسه وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وهذا من أجمع التعاريف، وقد جاء في معناها آثار عدة عن السلف كلها داخلة تحت هذا المعنى.

قال علي: التقوى: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

وقال ابن مسعود: حقيقة تقوى الله: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

وقال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله.

قال ابن القيم: وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى.

وروي أن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب عن التقوى؟ فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت؟ قال: تشمرت وحذرت، قال: فذاك التقوى.

قال ابن المعتز:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى

كن مثل ماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى .

قال ابن القيم : التقوى ثلاث مراتب:

إحداها: حميّة القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات، والثانية: حميّتها عن المكروهات، والثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني.

فالأولى تعطي العبد حياته، والثانية تفيده صحته وقوته، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته.

(**إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**) تعليل لما قبلها من الأمر بالتقوى ... ملاحظة عظم ذلك وهوله وفظاعة ما هو من مباديه ومقدماته من الأحوال والأهوال التي لا ملجأ منها سوى التدرع بلباس التقوى مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالة.

أي : اتَّقُوا اللهَ؛ لأنَّ أمامَكم أهوالًا عَظيمةً، يَحصُلُ منها رُعبٌ هائِلٌ، وفَزَعٌ كَبيرٌ يومَ القيامةِ، ولا نجاةَ مِن ذلك إلَّا بتَقواهُ سُبحانَه

قال ابن كثير : أي أمر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق مفظع ، وحادث هائل ، وكائن عجيب .

قال الشنقيطي : أي اتقوا الله ، لأن أمامكم أهوالاً عظيمة ، لا نجاة منها إلا بتقواه جل وعلا.

قال القاسمي : والزلزلة التحريك الشديد والإزعاج العنيف ، بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء من مقارّها ويخرجها عن مراكزها

(**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ**) أي : أن هذه الزلزلة من مظاهر شدتها ورهبتها، أنكم ترون الأم بسببها تنسى وتترك وليدها الذي ألقمته ثديها. وكأنها لا تراه ولا تحس به من شدة الفزع.

قال ابن عاشور : وذلك أن المرأة لشدّة شفقتها كثيرة الاستحضار لما تشفق عليه ، وأن المرضع أشد النساء شفقة على رضيعها ، وأنها في حال ملابسة الإرضاع أبعد شيء عن الذهول فإذا ذهلت عن رضيعها في هذه الأحوال دلّ ذلك على أن الهول العارض لها هول خارق للعادة.

وهذا من بديع الكناية عن شدة ذلك الهول لأن استلزام ذهول المرضع عن رضيعها لشدّة الهول يستلزم شدّة الهول لغيرها بطريق الأوْلى ، فهو لزوم بدرجة ثانية ، وهذا النوع من الكناية يسمى الإيماء.

الرؤية بصرية لأنهم يرون ذلك بأعينهم ، والذهول: الذهاب عن الأمر والانشغال عنه مع دهشة وحيرة وخوف .

قال ابن عطية : والذهول : الغفلة عن الشيء بطريان ما يشغل عنه من هم أو وجع أو غيره .

وقال ابن عطية : والذهول نسيان ما من شأنه أن لا يُنسى لوجود مقتضى تذكره ؛ إما لأنه حاضر أو لأن علمه جديد وإنما ينسى لشاغل عظيم عنه ، فذكر لفظ الذهول هنا دون النسيان لأنه أدل على شدّة التشاغل.

(**وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا**) أي : وترونها- أيضا- تجعل كل حامل تضع حملها قبل تمامه من شدة الفزع.

(**وَتَرَى النَّاسَ**) أي : وترى- أيها المخاطب- الناس في هذا الوقت العصيب .

(**سُكَارَى**) هيئتهم كهيئة السكارى .

جمع سكران : أي يشبههم من رآهم بالسكارى ، من شدة الفزع .

(**وَمَا هُم بِسُكَارَى**) أي : ما هم على الحقيقة بسكارى، لأنهم لم يشربوا ما يسكرهم .

قال ابن الجوزي : والمعنى : ترى الناس كأنهم سكارى من ذهول عقولهم ، لشدة ما يمرُّ بهم ، يضطربون اضطراب السكران من الشراب.

قال البقاعي : ولما كان الناس كلهم يرون الزلزلة، ولا يرى الإنسان السكر -إلا من غيره- قال في الزلزلة (ترونها) وقال في السكر (وترى الناس سكارى) أي لما هم فيه من الدهش والحيرة والبهت لما شاهدوا من حجاب العز وسلطان الجبروت وسرادق الكبريا .

(**وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**) أي: ولكِنَّ الذي أوجَبَ لهم هذه الحالةَ خَوفُهم مِن شِدَّةِ عذابِ اللهِ الذي رأوْهُ، فأذهَبَ هَولُه عُقولَهم، وأفرَغَ قُلوبَهم، ومَلَأها فَزَعًا ورُعباً .

وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة : هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة ، أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم ؟

فقال قائلون : هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة .

واختاره : السمعاني، وابن عطية ، وابن جزي، وابن عاشور، ونسبه القرطبيُّ إلى الجمهورِ.

قال أبو حيان: قال الجمهورُ: في الدنيا آخرَ الزمانِ، ويتبعُها طلوعُ الشمسِ مِن مغرِبِها .

وقال ابن عطية : واختلف المفسرون في " الزلزلة " المذكورة هل هي في الدنيا على القوم الذين تقوم عليهم القيامة ، أم هي في يوم القيامة على جميع العالم؟ فقال الجمهور هي في الدنيا والضمير في (ترونها) عائد عندهم على الزلزلة وقوى قولهم إن الرضاع والحمل إنما هو في الدنيا .

وقال في التسهيل : واختلف هل الزلزلة والشدائد المذكورة بعد ذلك في الدنيا بين يدي القيامة، أو بعد أن تقوم القيامة، والأرجح أن ذلك قبل القيامة، لأن في ذلك الوقت يكون ذهول المرضعة، ووضع الحامل لا بعد القيامة.

وتكون إضافتها إلى الساعة على هذا لكونها من إمارتها .

وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور .

واختاره : ابن جرير ، والشنقيطي .

لحديث أبي سعيد الخدري قال : قال النَّبي ﷺ (يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا آدمُ ، فيقول : لبيك ربَّنا وسعديك ، فَيُنادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال : يا رب ، وما بعث النار؟ قال : من كل ألف أراه ، قال تسعمائه وتسعة وتسعين ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد. فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم ، فقال النَّبي ﷺ : من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ، ومنكم واحد ، وأنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبرنا ثم قال : ثلث أهل الجنة ، فكبرنا ثم قال : شطر أهل الجنة ، فكبرنا).

قال السمعاني: فإن قال قائِلٌ: كيفَ تضَعُ المرأةُ حَمْلَها يومَ القيامةِ؟

الجوابُ: قُلْنا: أمَّا على قَولِنا: إنَّ الزَّلزلةَ قبل قيامِ السَّاعةِ، فمعنى وَضعِ الحَملِ على ظاهِرِه .

وإنْ قُلْنا: إنَّ الزَّلزلةَ عند قيامِ السَّاعةِ، فالجوابُ مِن وَجهَينِ: أحدُهما: أنَّ المرادَ مِن الآيةِ النِّساءُ اللَّواتي مِتنَ وهنَّ حَبالى. والوَجهُ الثَّاني –وهو الأصَحُّ–: أنَّ هذا على وَجهِ تعظيمِ الأمرِ، وذِكرِ شِدَّةِ الهَولِ، لا على حقيقةِ وَضعِ الحَملِ، والعرَبُ تقولُ: أصابَنا أمرٌ يَشيبُ فيه الوليدُ، وهذا على طَريقِ عِظَمِ الأمرِ وشِدَّتِه، وقد قال الله تعالى: (يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا) والمرادُ ما بَيَّنَّا .

وقال الشنقيطي : **فإن قيل** : هذا النص فيه إشكال ، لأنه بعد القيام من القبور لا تحمل الإناث ، حتى تضع حملها من الفزع ، ولا ترضع ، حتى تذهل عما أرضعت.

فالجواب عن ذلك من وجهين :

الأول : هو ما ذكره بعض أهل العلم ، من أن من ماتت حاملاً تبعث حاملاً ، فتضع حملها من شدة الهول والفزع ، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك ، ولكن هذا يحتاج إلى دليل.

الوجه الثاني : أن ذلك كناية عن شدة الهول كقوله تعالى (يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً) ومثل ذلك من أسباب اللغة العربية المعروفة.

الفوائد :

١. وجوب تقوى الله .

٢. الحث على تقوى الله .

٣. من أعظم ما يعين على النجاة من أهوال القيامة تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

(**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)**) .

[الحج : ٣-٤] .

==========

(**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ**) أي: وطائفة من الناس، يخاصم وينازع في قدرة الله وصفاته بغير دليل ولا برهان، ويقول ما لا خير فيه من الأباطيل، نزلت في (النضر بن الحارث) كان مجادلا يقول: الملائكة بناتُ الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا بعث بعد الموت، والآية عامة له ولأضرابه من العُتاة المتمردين .

قوله (فِي اللَّهِ) في ذاتِه، وفي رُبوبيته، وأُلوهيته، وأَسمائه وصِفاته، وأَحْكامه، وأَفْعاله .

قال ابن الجوزي : قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحارث.

وفيما جادل فيه ثلاثة أقوال.

أحدها : أنه كان كلَّما نزل شيء من القرآن كذَّب به ، قاله ابن عباس.

والثاني : أنه زعم أن الملائكة بنات الله ، قاله مقاتل.

والثالث : أنه قال : لا يقدر الله على إحياء الموتى ، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

وقال ابن عطية : قال ابن جريح نزلت في النضر بن الحارث وأبي بن خلف وقيل في أبي جهل بن هشام ثم هي بعد تتناول كل من اتصف بهذه الصفة ، و" المجادلة " المحاجة والموادة مؤخوذة من الجدل وهو الفتل والمعنى في قدرة الله تعالى وصفاته ، وكان سبب الآية كلام من ذكر وغيرهم في أن الله تعالى لا يبعث الموتى ولا يقيم الأجساد من القبور .

وقال أبو السعود : وهي عامَّة له ولأضرابِه من العُتاةِ المتمرّدين .

ومن الآيات الدالة على مجادلة الكفار في الله بغير علم :

قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ) .

وقوله في أول النحل (خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ) .

وقوله تعالى (وَيُجَادِلُ الذين كَفَرُواْ بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق) .

وقوله تعالى (والذين يُحَآجُّونَ فِي الله مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ).

(**وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ**) أي : ويتبع في جداله وتطاوله وعناده، كل شيطان عاد عن الخير، متجرد للفساد، لا يعرف الحق أو الصلاح، ولا هما يعرفانه، وإنما هو خالص للشر والغي والمنكر من القول والفعل.

قال أبو حيان : الظاهر أن قوله (كل شيطان مريد) هو من الجن كقوله (وإن يدعون إلاّ شيطاناً مريداً) وقيل : يحتمل أن يكون من الإنس كقوله (شياطين الإنس والجن) .

قال أبو السعود : والمرادُ إمَّا رُؤساءُ الكَفَرةِ الذين يَدْعُون مَن دونَهُم إلى الكفرِ وإمَّا إبليسُ وجنودُه.

(**كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ**) أي : حكم الله وقضى أنه من تولى الشيطان واتخذه ولياً .

(**فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ**) أي : فأن الشيطان يغويه ويسوقه إلى عذاب جهنم المستعرة ، وعبر بلفظ [ويهديه] على سبيل التهكم ، ولما ذكر تعالى المجادلين في قدرة الله ، المنكرين للبعث والنشور .

وما ذكره الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، من أنه قدر وقضى أن من تولى الشيطان ، فإن الشيطان يضله ويهديه إلى عذاب السعير ، بينه في غير هذا الموضع :

كقوله تعالى (إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السعير) .

وقوله تعالى (أَوَلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ إِلى عَذَابِ السعير) .

وقوله تعالى عن نبيه وخليله إبراهيم (يا أبت إِنِي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً) .

وقوله تعالى (وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشيطان فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بالفحشآء والمنكر) .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هاتين الآيتين نزلنا في شأن النضر بن الحارث أو العاص بن وائل، أو أبي جهل.. وكانوا يجادلون النبي ﷺ بالباطل.

ومن المعروف أن نزول هاتين الآيتين في شأن هؤلاء الأشخاص، لا يمنع من عمومهما .

ولذا قال صاحب الكشاف: وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز، من الصفات والأفعال. ولا يرجع إلى علم. ولا يعض فيه بضرس قاطع، وليس فيه اتباع للبرهان، ولا نزول على النصفة، فهو يخبط خبط عشواء، غير فارق بين الحق والباطل .

الفوائد :

١-ذم المجادلة في الله بغير علم .

٢-أن من صفات الكفار المجادلة بالباطل بغير علم .

٣=وجوب وصف الله بصفات الكمال والجمال .

٤- هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة ، لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة ، فالمجادلة الباطلة هي المراد من قوله (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً) والمجادلة الحقة هي المراد من قوله : (وجادلهم بالتي هِيَ أَحْسَنُ) .

قال الشنقيطي : واعلم أنه يفهم من دليل خطاب هذه الآية الكريمة، أعني مفهوم مخالفتها: أنه من يجادل بعلم على ضوء هدى كتاب منير، كهذا القرآن العظيم، ليحق الحق ، ويبطل الباطل بتلك المجادلة الحسنة أن ذلك سائغ محمود لأن مفهوم قوله (بِغَيْرِ عِلْمٍ) أنه إن كان بعلم ، فالأمر بخلاف ذلك، وليس في ذلك اتباع للشيطان، ويدل لهذا المفهوم المذكور قوله تعالى (ادع إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ) وقوله تعالى (وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ) .

٥- أن المجادَلة إن كانت بعِلْم وحِكْمة فهي مَمدوحة بلا شَكٍّ، وقد تَكون واجِبة .

٦- تحريم اتخاذ الشيطان ولياً .

٧- الحذر من اتباع خطوات الشيطان .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧)) .

[الحج : ٥-٧] .

==========

قال ابن كثير : لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْمُخَالِفَ لِلْبَعْثِ الْمُنْكِرَ لِلْمَعَادِ، ذَكَرَ تَعَالَى الدَّلِيلَ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى الْمَعَادِ بِمَا يُشَاهَدُ مِنْ بَدْئِهِ لِلْخَلْقِ .

وقال الشنقيطي : هذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَالْآيَاتُ الَّتِي بَعْدَهَا ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ جِدَالَ الْكَفَّارِ الْمَذْكُورَ فِي قَوْلِهِ : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ يَدْخُلُ فِيهِ جِدَالُهُمْ فِي إِنْكَارِ الْبَعْثِ ، زَاعِمِينَ أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَا يَقْدِرُ أَنْ يُحْيِيَ الْعِظَامَ الرَّمِيمَ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْهُمْ (وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) وَقَوْلِهِ (وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ) .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ) قيل: مشتقة من النَّوْس، وهي في اللغة بمعنى الحركة المتتابعة، سموا بذلك لتناسلهم المتتابع غير المنقطع، وقيل: مشتق من الإنس، لأنه يأنس بعضهم ببعض، وقيل: إنها وكذا (الإنسان) كل منهما مشتق من النسيان كما قيل: وما سمي الإنسان إلا لنسيهِ، ولا القلب إلا أنه يتقلب.

والمراد بالناس هنا: المشركون وكل من كان على شاكلتهم في إنكار أمر البعث واستبعاده، لأن المؤمنين يعترفون بأن البعث حق، وأنه واقع بلا أدنى شك أو ريب.

(إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ) في شك .

(مِّنَ الْبَعْثِ) من المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة .

قال السعدي : قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ) أي: شك واشتباه، وعدم علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم، وتصدقوا رسله في ذلك، ولكن إذا أبيتم إلا الريب، فهاكم دليلين عقليين تشاهدونهما، كل واحد منهما، يدل دلالة قطعية على ما شككتم فيه، ويزيل عن قلوبكم الريب.

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سيعيده .

(فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مّن تُرَابٍ) كما قال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ) .

وقال تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ) .

قال القرطبي : (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ) أي خلقنا أباكم الذي هو أصل البشر ؛ يعني آدم عليه السلام (مِّن تُرَابٍ).

التَّحْقِيقُ أَنَّ مَعْنَى خَلْقِهِ النَّاسَ مِنْ تُرَابٍ أَنَّهُ خَلَقَ أَبَاهُمْ آدَمَ مِنْهَا . كَمَا قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) وَلَمَّا خَلَقَ أَبَاهُمْ مِنْ تُرَابٍ وَكَانُوا تَبَعًا لَهُ فِي الْخَلْقِ صَدَقَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ تُرَابٍ .

قال ابن عطية : (فإنا خلقناكم من تراب) يريد آدم ثم سلط الفعل عليهم من حيث هم من ذريته .

وهذا من أعظم أدلة البعث .

والمعنى : إن شككتم في قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم ، فأنظروا في أصل خلقكم ليزول ريبكم ، فقد خلقنا أصلكم (آدم) من الأرض ، والقادر على ذلك قادر على أن يخرجكم من قبوركم .

قال ابن الجوزي : والمعنى : إن شككتم في بعثكم فتدبَّروا أمر خلقكم وابتدائكم ، فإنكم لا تجدون في القدرة فرقاً بين الابتداء والاعادة.

فَمَنْ أَوجَدَكُمُ الْإِيجَادَ الْأَوَّلَ، وَخَلَقَكُمْ مِنَ التُّرَابِ لَا شَكَّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِيجَادِكُمْ، وَخَلْقِكُمْ مَرَّةً ثَانِيَةً، بَعْدَ أَنْ بَلِيَتْ عِظَامُكُمْ، واخْتَلَطَتْ بِالتُّرَابِ; لِأَنَّ الْإِعَادَةَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ أَصْعَبَ مِنِ ابْتِدَاءِ الْفِعْلِ، وَهَذَا الْبُرْهَانُ الْقَاطِعُ عَلَى الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ – الَّذِي هُوَ خَلْقُهُ تَعَالَى لِلْخَلَائِقِ الْمَرَّةَ الْأُولَى – الْمَذْكُورُ هُنَا ، جَاءَ مُوَضَّحًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ :

كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) .

وَقَوْلِهِ : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُه) .

قال تعالى (فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) .

وقال تعالى (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ).

وقال تعالى (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) .

وَقَال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) .

وَقَال تعالى (فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) .

وَلِذَا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ فَقَدْ نَسِيَ الْإِيجَادَ الْأَوَّلَ ،كَمَا فِي قَوْلِهِ : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ) .

وَقَوْلِهِ : (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) .

ثُمَّ رَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ الدَّلِيلَ بِقَوْلِهِ : (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ) .

وفي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي يَرْوِيهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ : «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي ، وَآذَانِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُؤْذِيَنِي ، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ; وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ آخِرِهِ ، وَأَمَّا أَذَاهُ إِيَّايَ ، فَقَوْلُهُ إِنَّ لِي وَلَدًا ، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

وَلِأَجْلِ قُوَّةِ دَلَالَةِ هَذَا الْبُرْهَانِ الْمَذْكُورِ عَلَى الْبَعْثِ بَيَّنَ جَلَّ وَعَلَا أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ فَهُوَ نَاسٍ لِلْإِيجَادِ الْأَوَّلِ كَقَوْلِهِ : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ) .

إِذْ لَوْ تَذَكَّرَ الْإِيجَادَ الْأَوَّلَ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، لَمَا أَمْكَنَهُ إِنْكَارُ الْإِيجَادِ الثَّانِي ، وَكَقَوْلِهِ (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) إِذْ لَوْ تَذَكَّرَ ذَلِكَ تَذَكُّرًا حَقِيقِيًّا لَمَا أَنْكَرَ الْخَلْقَ الثَّانِيَ .

ثم بيّن مراحل أطوار الإنسان :

فَبَيَّنَ أَنَّ ابْتِدَاءَ خَلْقِهِ مِنْ تراب كما تقدم .

(**ثُمَّ**) خلقنا ذريته .

(**مِن نُّطْفَةٍ**) وهو مني الرجل ، وهو الماء المهين ، قال تعالى (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) وهي بداية التخليق، قال تعالى (ألم نخلقكم من ماء مهين) .

وقال تعالى (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) .

قال القرطبي (مِن نُّطْفَةٍ) وهو المنِيّ ؛ سُمِّيَ نطفة لقلّته ، وهو القليل من الماء .

وقال الشنقيطي : وَالنُّطْفَةُ فِي اللُّغَةِ : الْمَاءُ الْقَلِيلُ .

وَالْمُرَادُ بِالنُّطْفَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : نُطْفَةُ الْمَنِيِّ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ النَّحْلِ : أَنَّ النُّطْفَةَ مُخْتَلِطَةٌ مِنْ مَاءِ الرَّجُلِ وَمَاءِ الْمَرْأَةِ ، خِلَافًا لِمَنْ زَعَمَ أَنَّهَا مِنْ مَاءِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ .

(**ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ**) أي : ثم تتحول النطفة إلى علقة ، وهي قطعة من دم أحمر غليظ تعلق بالرحم .

(**ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ**) أي : تتحول العلقة إلى مضغة ، وهي قطعة لحم صغيرة على قدر ما يمضغ ، لا شكل فيها ولا تخطيط .

عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ ﷺ، قال: حَدَّثنا رَسولُ اللهِ ﷺ، وهو الصَّادِقُ المصدوقُ، قال (إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أمِّه أربعينَ يَومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك، ثم يَبعَثُ اللهُ ملَكًا فيُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقِيٌّ أو سَعيدٌ، ثم يُنفَخُ فيه الرُّوح) .

مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) اختلف في معناها :

قيل : الْمُخَلَّقَةَ هِيَ التَّامَّةُ ، وَغَيْرَ الْمُخَلَّقَةِ هِيَ غَيْرُ التَّامَّةِ .

وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْقَوْلِ عِنْدَ قَائِلِهِ : أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا يَخْلُقُ الْمُضَغَ مُتَفَاوِتَةً ، مِنْهَا مَا هُوَ كَامِلُ الْخِلْقَةِ ، سَالِمٌ مِنَ الْعُيُوبِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَلَى عَكْسِ ذَلِكَ ، فَيَتْبَعُ ذَلِكَ التَّفَاوُتَ تَفَاوُتُ النَّاسِ فِي خَلْقِهِمْ ، وَصُوَرِهِمْ ، وَطُولِهِمْ ، وَقِصَرِهِمْ ، وَتَمَامِهِمْ ، وَنُقْصَانِهِمْ .

وَمِمَّنْ رُوِيَ عَنْهُ هَذَا الْقَوْلُ : قَتَادَةُ كَمَا نَقَلَهُ عَنْهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ ، وَعَزَاهُ الرَّازِيُّ لِقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ .

ورجحه الشنقيطي .

وقيل : الْمُخَلَّقَةَ : هِيَ مَا وُلِدَ حَيًّا ، وَغَيْرَ الْمُخَلَّقَةِ : هِيَ مَا كَانَ مِنْ سِقْطٍ .

وقيل : أَنَّ مَعْنَى مُخَلَّقَةٍ مُصَوَّرَةٍ إِنْسَانًا ، وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ؛ أَيْ : غَيْرِ مُصَوَّرَةٍ إِنْسَانًا كَالسِّقْطِ الَّذِي هُوَ مُضْغَةٌ ، وَلَمْ يُجْعَلْ لَهُ تَخْطِيطٌ وَتَشْكِيلٌ ، وَمِمَّنْ نُقِلَ عَنْهُ هَذَا الْقَوْلُ : مُجَاهِدٌ ، وَالشَّعْبِيُّ ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ .

وقيل : الْمُخَلَّقَةُ : الْمُصَوَّرَةُ خَلْقًا تَامًّا . وَغَيْرُ الْمُخَلَّقَةِ : السِّقْطُ قَبْلَ تَمَامِ خَلْقِهِ .

ورجحه ابن جرير .

(**لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ**) متعلق بقوله (خلقناكم) أي : خلقناكم على هذا النحو العجيب، وفي تلك الأطوار البديعة. لنبين لكم كمال قدرتنا، وبليغ حكمتنا. وأننا لا يعجزنا إعادة كل حي إلى الحياة بعد موته.

أيْ : لِنُبَيِّنَ لَكُمْ بِهَذَا النَّقْلِ مِنْ طَوْرٍ إِلَى طَوْرٍ ، كَمَالَ قُدْرَتِنَا عَلَى الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ الْبَشَرِ مِنْ تُرَابٍ أَوَّلًا ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثَانِيًا ، مَعَ مَا بَيْنَ النُّطْفَةِ وَالتُّرَابِ مِنَ الْمُنَافَاةِ وَالْمُغَايَرَةِ ، وَقَدَرَ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، مَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّبَايُنِ وَالتَّغَايُرِ ، وَقَدَرَ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، وَالْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَهُوَ قَادِرٌ بِلَا شَكٍّ عَلَى إِعَادَةِ مَا بَدَأَهُ مِنَ الْخَلْقِ ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ .

وَقَوْلُهُ : لِنُبَيِّنَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِـ «خَلَقْنَاكُمْ» فِي قَوْلِهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ؛ أَيْ: خَلَقْنَاكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ عَلَى التَّدْرِيجِ الْمَذْكُورِ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ قُدْرَتَنَا عَلَى الْبَعْثِ وَغَيْرِهِ .

قال ابن جزي: (لِنُبَيِّنَ لَكُمْ) اللامُ تتعلَّقُ بمحذوفٍ تقديرُه: ذكَرْنا ذلك لنُبيِّنَ لكم قدرتَنا على البعثِ .

وقال أبو السعود :(لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ) متعلِّقٌ بخلقنا وتركُ المفعولِ لتفخيمِه كمًّا وكيفاً أي خلقناكُم على هذا النَّمطِ البديعِ ليبين لكُم بذلك ما لا تحصرُه العبارةُ من الحقائقِ والدَّقائقِ التي من جُملتها سرُّ البعثِ فإنَّ مَن تأمَّل فيما ذُكر من الخلقِ التدريجيِّ تأمُّلاً حقيقيًّا جزمَ جَزْماً ضروريًّا بأنَّ مَن قدَرَ على خلقِ البشرِ أوَّلاً من تُرابٍ لم يشمَّ رائحةَ الحياةِ قَطُّ وإنشائِه على وجهٍ مصحِّحٌ لتوليدِ مثلِه مرَّةً بعد أُخرى بتصريفِه في أطوارِ الخلقةِ وتحويلِه من حالٍ إلى حالٍ مع ما بينَ تلك الأطوارِ والأحوالِ من المخالفةِ والتَّباينِ فهو قادرٌ على إعادتِه بل هو أهونُ في القياسِ نظراً إلى الفاعلِ والقابلِ.

قال الرازي : قوله تعالى (لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ) ففيه وجهان : أحدهما: لنبين لكم أن تغيير المضغة إلى المخلقة هو باختيار الفاعل المختار ، ولولاه لما صار بعضه مخلقاً وبعضه غير مخلق وثانيهما : التقدير إن كنتم في ريب من البعث فإنا أخبرناكم أنا خلقناكم من كذا وكذا لنبين لكم ما يزيل عنكم ذلك الريب في أمر بعثكم ، فإن القادر على هذه الأشياء كيف يكون عاجزاً عن الإعادة.

(**وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ**) أي: ونُثبِتُ في أرحامِ الأمَّهاتِ ما نشاءُ إبقاءَه مِن الأجِنَّةِ إلى الوَقتِ الذي قدَّرْناه للوِلادةِ .

(**مَا نَشَاء**) إتمامه .

(**إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**) معلوم .

أي نقر في أرحام الأمهات ما نشاء إقراره فيها، من الأحمال ، والأجنة إلى أَجل مسمى: أي معلوم معين في علمنا، وهو الوقت الذي قدره الله لوضع الجنين، والأجنة تختلف في ذلك حسبما يشاؤه الله جل وعلا، فتارة تضعه أمه لستة أشهر، وتارة لتسعة، وتارة لأكثر من ذلك. وما لم يشأ الله إقراره من الحمل مجته الأرحام وأسقطته .

قال الرازي : والأجل المسمى هو الوقت المضروب للولادة .

قال ابن عاشور : والأجل : الأمد المجعول لإتمام عمل ما ، والمراد هنا مدة الحمل.

(**ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ**) أي : من بطونِ أمَّهاتِكم بعد إقرارِكم فيها عند تمامِ الأجلِ المسمَّى .

(**طِفْلاً**) أَيْ : ضَعِيفًا فِي بَدَنِهِ وسمعه وبصره وَبَطْشِهِ وَعَقْلِهِ، ثُمَّ يُعْطِيهِ اللَّهُ الْقُوَّةَ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيَلْطُفُ بِهِ وَيَحْنُنْ عَلَيْهِ وَالِدِيَّةُ فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ . (ابن كثير)

قال البقاعي : (طفلاً) أي في حال الطفولة من صغر الجثة وضعف البدن والسمع والبصر وجميع الحواس، لئلا تهلكوا أمهاتكم بكبر أجرامكم، وعظم أجسامكم .

(**ثُمَّ**) نمد أجلكم .

(**لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ**) أيْ : يَتَكَامَلُ الْقُوَى وَيَتَزَايَدُ، وَيَصِلُ إلى عنفوان الشباب وحسن المظهر .

قال ابن الجوزي : (ثم لتبلغوا) فيه إضمار ، تقديره : ثم نعمِّركم لتبلغوا أشدكم .

قال السمعاني: الأكثرونَ على أنَّ الأشُدَّ: ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً، وإليها تَنْتهي، يعني: قوَّةَ الشَّبابِ .

وقال ابن جزي: لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ هو كمالُ القوَّةِ والعقلِ والتمييزِ، وقد اختُلِف فيه مِن ثماني عشْرةَ سنةً إلى خمسٍ وأربعين .

(**وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى**) أَيْ : فِي حَالِ شَبَابِهِ وَقَوَاهُ .

(**وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ**) وَهُوَ الشَّيْخُوخَةُ وَالْهَرَمُ وَضَعْفُ الْقُوَّةِ وَالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ وَتَنَاقُصُ الْأَحْوَالِ مِنَ الْخَرَفِ وَضَعْفِ الْفِكْرِ **قال الرازي** : والمعنى أن منكم من يتوفى على قوته وكماله ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر وهو الهرم والخرف ، فيصير كما كان في أول طفوليته ضعيف البنية ، سخيف العقل ، قليل الفهم.

وقال الصنعاني في سبل السلام: والمراد من الرد إلى أرذل العمر: هو بلوغ الهرم والخرف، حتى يعود كهيئته الأولى في أوان الطفولية، ضعيف البنية، سخيف العقل، قليل الفهم. انتهى. وزاد المباركفوري في بيان المعنى فقال: ويقال: أرذل العمر أردؤه وهو حالة الهرم والضعف عن أداء الفرائض وعن خدمة نفسه فيما يتنظف فيه فيكون كلا على أهله ثقيلاً بينهم يتمنون موته. انتهى. تحفة الأحوذي.

قال تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) .

وقال سُبحانَه (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) .

وقال عزَّ وجَلَّ (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ) .

قال القرطبي : (وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر) أي : أخسّه وأدْوَنه وهو الهَرَم والخَرَف حتى لا يعقِل ؛ ولهذا قال : (لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً) كما قال في سورة يس (وَمَن نّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخلق) .

وقال تعالى (والله خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) .

واختلف العلماء في أرذل العمر هل هو مقدر بسن معينة أم لا؟

والراجح أنه لا يتقدر بسن معينة، وأنه عام فيمن يلحقه الخرف والهرم.

ورجحه الطبري، والزجاج، والسمرقندي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي.

والشوكاني، والشنقيطي، وهو قول جمهور العلماء.

والمراد بأرذل العمر: أضعفه وأوهاه وهو وقت الهرم والشيخوخة، الذي تنقص فيه القوى، وتعجز فيه الحواس عن أداء وظائفها.

قال الماوردي: أوضعه وأنقصة، قاله الجمهور.

ولقد استعاذ النبي ﷺ من أن يصل عمره إلى هذه السن : لأنها سن تتكاثر فيها الآلام والمتاعب. وقد يصير الإنسان فيها عالة على غير .

ما فيه مِن الخَرَفِ واختلالِ العَقلِ والحَوَاسّ والضَّبطِ والفَهمِ، وتَشويهِ بعضِ المناظِر، والعَجزِ عن كَثيرٍ مِن الطَّاعاتِ والتَّساهُلِ في بعضِها.

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: (إِنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ بِهِنَّ دُبُرَ اَلصَّلَاةِ: " اَللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ اَلْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ اَلْجُبْنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ اَلْعُمُرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ اَلدُّنْيَا ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ اَلْقَبْرِ) رَوَاهُ اَلْبُخَارِيُّ.

(**لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا**) فيَصيرُ ضَعيفًا في بَدَنِه وعَقْلِه، لا علمَ له ولا فَهمَ، بعد أن كان قَوِيًّا ذا فَهمٍ وعِلمٍ بالأشياءِ ! كَمَا قَالَ تَعَالَى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) .

قال ابن عطية: أي يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبلُ من الأمور لفرط الكبر.

قال البقاعي : (**مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا**) بل يصير كما كان طفلاً في ضعف الجواهر والأعراض ، لتعلموا أن ذلك كله فعل الإله الواحد المختار ، وأنه لو كان فعل الطبيعة لازداد بطول البقاء نمواً في جميع ذلك ، وقد علم – بعود الإنسان في ذهاب العلم وصغر الجسم إلى نحو ما كان عليه في ابتداء الخلق – قطعاً أن الذي أعاده إلى ذلك قادر على إعادته بعد الممات ، والكون على حال الرفات.

وقال ابن عطية : (لكيلا يعلم) أي لينسى معارفه وعلمه الذي كان معه فلا يعلم من ذلك شيئاً فهذا مثال واحد يقضي للمعتبر به أن القادر على هذه المناقل المتقن لها قادر على إعادة تلك الأجساد التي أوجدها بهذه المناقل إلى حالها الأولى.

قال الرازي : إن قيل كيف قال : (لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً) مع أنه يعلم بعض الأشياء كالطفل ؟ قلنا المراد أنه يزول عقله فيصير كأنه لا يعلم شيئاً لأن مثل ذلك قد يذكر في النفي لأجل المبالغة، ومن الناس من قال هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى : (ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين * إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات) وهو ضعيف.

(**وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً**) هَذَا دَلِيلٌ آخَرُ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ الهامدة .

هامدة : أي يابسة مطمئنة ساكنة سكون الميت ليس بها شيء من نبت .

(**فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء**) أي : ماء المطر .

(**اهْتَزَّتْ**) أَيْ : تَحَرَّكَتْ بالنبات، وَحَيِيَتْ بَعْدَ مَوْتِهَا .

قال الرازي : والاهتزاز : شدة الحركة في الجهات المختلفة.

(**وَرَبَتْ**) معناه نشزت وارتفعت ومنه الربوة وهو المكان المرتفع .

(**وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**) أَيْ : حَسَنِ الْمَنْظَرِ طَيِّبِ الرِّيحِ.

والبهجة حسن الشيء ونضارته .

هذا الدليل الثاني الذي ذكره الله من أدلة البعث : إحياء الأرض بعد موتها من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت.

قال تعالى (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

وقال سبحانه (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ).

وقال تعالى (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الخروج)، يعني: خروجكم من قبوركم أحياء بعد أن كنتم عظاماً رميما.

وقال تعالى (وَيُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) .

وقال تعالى (حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المآء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) .

وقد تنوعت طرق إثبات البعث في القرآن، وجاءت على سبع طرق:

الطريقة الأولى: آيات صريحة في إثبات ذلك:

قال تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ).وقال تعالى: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ).وقال تعالى: (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ).وقال تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ).وقال تعالى: (أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ).

وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد:

فقال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ).

وقال تعالى: (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ).

وقال تعالى: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

الطريقة الثانية: التذكير بنشأة الإنسان الأولى:

قال تعالى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ).

الطريقة الثالثة: الاستدلال بإنبات النبات على إحياء الأموات:

كما تقدم في الآيات السابقة .

الطريقة الرابعة: الإشارة ولفت الانتباه إلى خلق السماوات:

فخلق السماوات والأرض من براهين البعث، لأنهما من أعظم المخلوقات، ومن قدر على خلق الأعظم، فهو على غيره قادر من باب أحرى، وأوضح الله تعالى هذا البرهان في آيات كثيرة:

كقوله تعالى (لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس) .

وقوله (أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بلى وَهُوَ الخلاق العليم) .

وقوله (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى بلى) .

وقوله (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض قَادِرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) .

وقوله: (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) الآية .. إلى غير ذلك من الآيات.

الطريقة الخامسة: تنزيه الله سبحانه عن العبث.

فلو فرضنا أنه لا جزاء ولا حساب ولا بعث، فما فائدة الأوامر والنواهي.

قال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ).

وقال تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً). أي: لا يؤمر ولا ينهى، وقيل لا يبعث.

الطريقة السادسة: تنزيه الله عن الظلم:

فلو لم يكن هناك بعث لا استوى الناس، فاستوى المؤمن الذي ترك كثيراً من الشبهات مخافة ربه، والكافر لا يعرف ربه أصلاً.

قال تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ).

الطريقة السابعة: ذكر وقائع وأحداث يستدل بها على البعث .

كما في قصة قتيل بني إسرائيل.

وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.

وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها.

وقصة إبراهيم – عليه السلام – والطيور الأربعة.

وقصة أصحاب الكهف، فقد أماتهم الله في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين، قال تعالى في قصتهم: (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ ...).

(**ذَلِكَ**) أي: ذلك الذي ذكَرْنا لكم –أيُّها النَّاسُ– مِن أطوارِ خَلْقِكم، وإحياءِ الأرضِ بالماءِ بعدَ مَوتِها .

(**بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ**) أَيِ : الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ ، الذي يَستَحِقُّ العِبادةَ وَحْدَه؛ فعِبادتُه حَقٌّ، وعِبادةُ ما سِواهُ باطِلةٌ .

وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى) أيْ : كَمَا أَحْيَا الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ وَأَنْبَتَ منها هذه الأنواع إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى .

كما قال تعالى (فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى) أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، بعد ما كانوا رفاتا متمزقين، وهذا استدلال واضح، فإنه لا فرق بين الأمرين، فمنكر البعث استبعادا له – مع أنه يرى ما هو نظيره – من باب العناد، وإنكار المحسوسات.

(**وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) فلا يعجزه شيء ، ولا أحد يستطيع أن يرد أمره.

كما قال تعالى (إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

فالآية عامة، فالله على كل شيء قدير، على ما شاءه وما لم يشأه.

قال الشنقيطي: وجرت العادة بذكر قدرته عند الأمور التي لا يستطيعها البشر، كما ذكر ذلك عند نصره لعباده الضعفاء المتمسكين بدينه كقوله تعالى في الأحزاب (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً) وقال في الحديبية (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً).

ومن قدرته أنه سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء ويؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء كما قال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الآية عامة، فهو قدير على كل شيء، على ما شاءه وما لم يشأه، وبهذا نعرف أن تقييد بعض الناس القدرة بالمشيئة خطأ، لأن الله قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء، وأما قوله تعالى (وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) فالمشيئة هنا ليست عائدة على القدرة، ولكنها عائدة على الجمع، يعني: إذا أراد جمعهم وشاء جمعهم فهو قدير عليه لا يعجزه شيء.

(**وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا**) أَيْ : كَائِنَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا وَلَا مِرْيَةَ .

كما قال تعالى (قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ).

ولمراد بالساعة الوقت الذي تقوم فيه القيامة ، وسميت بذلك لسرعة الحساب فيها ، أو لأنها تفجأ الناس في ساعة ، فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة.

والساعة تطلق على ثلاثة معان:

الساعة الصغرى: وهي موت الإنسان ، فمن مات فقد قامت قيامته ، لدخوله في عالم الآخرة.

والساعة الوسطى: وهي موت أهل القرن الواحد ، ويؤيد ذلك :

ما روته عائشة قالت (كَانَ الأَعْرَابُ إِذَا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلُوهُ عَنِ السَّاعَةِ مَتَى السَّاعَةُ فَنَظَرَ إِلَى أَحْدَثِ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ فَقَالَ « إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ) . أي: موتهم ، والمراد ساعة المخاطبين.

والساعة الكبرى: وهي بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

وإذا أطلقت الساعة في القرآن ، فالمراد بها القيامة الكبرى كقوله تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ).

(**وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ**) أَيْ : يُعِيدُهُمْ بَعْدَ مَا صَارُوا فِي قُبُورِهِمْ رِمَمًا وَيُوجِدُهُمْ بَعْدَ الْعَدَمِ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ) .

الفوائد :

١. وجوب الإيمان بالبعث .

٢. كفر من لم يؤمن بالبعث .

٣. بَيانُ أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلَقَنا وحدَه، وأنه لا خالِقَ إلَّا الله، وقد قال الله عز وجل في سورة الطُّور (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) جوابُنا أنه لم يَخلُق من غير شيء، وليس هُمُ الخالِقين، إِذَنْ فلَهُم خالِق.

٤. بَيان أن أصل بني آدَمَ هو التُّراب، لقوله (مِنْ تُرَابٍ) والتُّراب مَعروف أنه يَختَلِف، ومن ثَم اختَلَفَت طبائِعُ بني آدَمَ، واختَلَفت ألوان بني آدَمَ، واختَلَفَت أَلْسِنة بني آدَمَ كما اختَلَف أَصْلُهم، فالتُّراب منه الرَّمْل والطين والسِّباخ، وغير ذلك .

٥. من أدلة إثبات البعث التذكير بالنشأة الأولى .

٦. بيان تَطوُّر خَلْق الإنسان في بطن أُمِّه .

٧. بَيانُ قُدرة الله عز وجل أنه بعد هذا الجَنينِ، أو بعد هذه الحالِ في بَطْن أُمِّه يَخرُج طِفلًا مُتكامِلًا .

٨. أن الأَجَل مَهما طال بالإنسان فإنه محَدود، له غاية : وَالمَرْءُ يَفْرَحُ بِالْأَيَّامِ يَقْطَعُهَا ... وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْأَجَلِ .

٩. ن المميت هو الله.

١٠. أن من يخلق ويميت هو المستحق للعبادة.

١١. كل مخلوق سوف يموت.

١٢. من الناس من يموت صغيراً ومنهم من يموت شاباً ومنهم من يموت كبيراً.

١٣. من الناس من يكبر حتى يرد إلى أرذل العمر.

١٤. عموم علم الله تعالى.

١٥. عموم قدرة الله تعالى على كل شيء.

١٦. من أدلة إثبات البعث إحياء الأرض بعد موتها .

١٧. أن من آيات الله الدالة على قدرته وعظمته إحياء الأرض بعد موتها .

١٨. أن الذي يحيي ويميت هو الله .

١٩. عموم قدرة الله ، وأن الله لا يعجزه شيء .

٢٠. إثبات الساعة .

٢١. قرب الساعة .

٢٢. أن الساعة حق .

٢٣. لا يعلم أحد متى الساعة إلا الله .

فإن قيل: لماذا لم يخبرنا الله تعالى بوقت قيام الساعة؟

فالجواب: أن الحكمة تقتضي إخفاء وقتها عن الخلق.

وبيان ذلك: أن النبي ﷺ بعث مبشراً لمن أطاعة بالجنة، ومنذراً لمن عصاه بالنار. والإنذار بالساعة والنار وأهوالها، لا تتم الفائدة منه إلا بإبهام وقتها؛ ليخشى أهلُ كلِّ زمان إتيانَها فيه، فالإعلام بوقت إتيانها، وتحديد تاريخها، ينافي هذه الفائدة، بل فيه مفاسد أخرى؛ فلو قال الرسول ﷺ للناس: إن الساعة تأتي بعد ألف سنة من يومنا هذا مثلا، لرأيت المكذبين يستهزئون بهذا الخبر، ويلحون في تكذيبه، والمرتابين يزدادون ارتيابا.

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠)) .

[الحج : ٨-١٠] .

==========

لما ذكَرَ تعالى حالَ الضُّلَّالِ الجُهَّالِ المقَلِّدينَ، في قَولِه: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ) ذكَرَ في هذه حالَ الدُّعاةِ إلى الضَّلالِ مِن رُؤوسِ الكُفرِ والبِدَعِ، فقال :

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يُجادِلُ رُسُلَ اللهِ وأتباعَهم في شأنِ اللهِ وتوحيدِه وقدرتِه بجَهلٍ، مِن غَيرِ عِلمٍ صَحيحٍ .

والمجادَلة مَأخوذة من الجَدْل، وهو فَتْل الحَبْل لإحْكامه، ومنه ما يُسمَّى الجَدائِل، جَدائل المرأة أي: فَتْل رأسها وإحكامها .

واصطلاحاً : هي الممانَعة، بمَعنَى: أن كل واحِد من المتَناظِرين يُحكِم الحُجَّة من أَجْل إفحام خَصْمه، فهي إذَن إحكام الحُجَّة لإفْحام الخَصْم وتَعجيزه.

وقوله (في الله) في ذاته سبحانه وتعالى ، وفي رُبوبيته ، وفي أُلوهيته ، وفي أَسمائه وصِفاته ، وفي أَحكامه وأَفعاله .

قال الشوكاني: قيل: والمرادُ بالعلمِ هو العلمُ الضَّروريُّ... والأَولى حمْلُ العِلمِ على العُمومِ .

(وَلا هُدًى) يهتدي به .

(وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) أي : ولا كتاب إلهي نيّر بيّن الحجة .

وممن اختار أنَّ المرادَ بالكتابِ المنيرِ: الوحيُ: النسفي، وأبو السعود، والألوسي، والشنقيطي.

وقيل: المرادُ بالكتابِ المنيرِ هنا: القرآنُ. وممن قال بذلك: الشوكاني.

(ثَانِيَ عِطْفِهِ) أي : معرضاً عن الحق لاوياً عنقه كفراً ، قال ابن عباس : مستكبراً عن الحق إذا دُعي إليه ، قال الزمخشري : وثنيُ العطف عبارة عن الكبر والخيلاء ، فهو كتصعير الخد .

قال السعدي : أي لاوي جانبه وعنقه، وهذا كناية عن كبره عن الحق، واحتقاره للخلق، فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل الحق وما معهم من الحق .

مَا ذَكَرَهُ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ إِعْرَاضِ بَعْضِ الْكُفَّارِ عَنِ الْحَقِّ وَاسْتِكْبَارِهِمْ أَوْضَحَهُ فِي آيَاتٍ أُخَرَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ .

كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ لُقْمَانَ فِي وَصِيَّتِهِ لِابْنِهِ (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) أَيْ : لَا تُمِلْ وَجْهَكَ عَنْهُمُ اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ .

وقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ (وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ) .

فَقَوْلُهُ : فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ بِمَعْنَى : ثَنَى عِطْفَهُ .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

(**لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**) أي ليضل غيره عن سبيل الله .

(**لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ**) وهو الإهانة والذل ، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لقاه الله المذلة في الدنيا وعاقبه فيها قبل الآخرة ، لأنها أكبر همه ومبلغ علمه . (ابن كثير) .

قال السعدي : أي يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من آيات الله العجيبة، فإنك لا تجد داعيا من دعاة الكفر والضلال، إلا وله من المقت بين العالمين، واللعنة، والبغض، والذم، ما هو حقيق به، وكل بحسب حاله.

(**وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ**) أي: ونُذيقُه يومَ القِيامةِ ألَمَ عَذابِ النَّارِ المحرِقةِ .

قال السعدي : أي نذيقه حرها الشديد، وسعيرها البليغ، وذلك بما قدمت يداه .

(**ذَلِكَ**) العذاب .

فالإشارةُ في قولِه تعالى (ذَلِكَ) إلى: عذابِ النَّارِ المشارِ إليه في قَولِه: وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ.

واختاره : ابنُ جرير، والسمرقندي، والقرطبي، وابنُ عاشور، والشنقيطي.

وقيل: الإشارةُ إلى العذابِ الدُّنيويّ والأُخرويّ في قولِه تعالى: لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ.

واختاره الشوكاني .

(**بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ**) يقال له هذا تقريعاً وتوبيخاً .

قال الشنقيطي : وما ذكرهُ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ أَنَّ الْكَافِرَ يُقَالُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ الْآيَةَ ، لَا يَخْفَى أَنَّهُ تَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ وَإِهَانَةٌ لَهُ ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ الْقَوْلِ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ :

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وَالْآيَاتُ بِمِثْلِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا .

كما قال تعالى في آية أخرى (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ) أي: ذلك العذاب بما اقترفته أيديكم من الجرائم.

– والمراد بالأيدي هنا أنفسهم، لكن أضيف العمل أو المقدّم بالأيدي، لأن الغالب أن الأيدي هي محل البطش والعمل.

فمعنى : ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ، أي: بعَمَلِك، ولكِنَّه جرت عادةُ العَرَبِ أن تُضيفَ الأعمالَ إلى اليَدِ؛ لأنَّها آلةُ أكثَرِ العَمَلِ، فبها يُزاوَلُ أكثرُ الأعمالِ، فغلبَتْ على غيرِها ، ولكونِ مباشرةِ المعاصي تكونُ بها في الغالبِ .

(**وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**) لكمال عدله سبحانه وتعالى .

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) .

أي: إن الله لا يبخس أحداً من ثواب عمله ولا يزيد في عقابه شيئاً مقدار ذرة.

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً) ظلماً: أي: زيادة في السيئات (ولا هضماً) أي نقصاً في الحسنات.

وقال تعالى (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ).

وقال تعالى (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ). قال الحسن: أي: بذنبك.

وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا) وذلك لكمال عدله، فلا ينقصون من حسناتهم، ولا يزاد عليهم في السيئات، ولا يعاقبون بظلم غيرهم.

قال ابن تيمية: حين سئل عَنْ قَوْلِ عَلِيٍّ ﷺ: لَا يَرْجُوَنَّ عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَخَافَنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ؛ مَا مَعْنَى ذَلِكَ؟

فَأَجَابَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ، هَذَا الْكَلَامُ يُؤْثَرُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ الْكَلَامِ وَأَبْلَغِهِ وَأَتَمِّهِ؛ فَإِنَّ الرَّجَاءَ يَكُونُ لِلْخَيْرِ وَالْخَوْفَ يَكُونُ مِنْ الشَّرِّ وَالْعَبْدُ إنَّمَا يُصِيبُهُ الشَّرُّ بِذُنُوبِهِ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ).

الفوائد :

١-ذمُّ الجدَل بغير بُرْهان .

٢-أن الجدَل بالعِلْم والهدى والدليلِ من القُرآن لا يُذَمُّ صاحِبه؛ لأنه حَقٌّ، وقد قال الله تعالى: (وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ).

٣-أنه يَنبَغي للمُجادِل أن يَكون له دليل من العَقْل أو من النَّقْل؛ لقوله تعالى: (بِغَيْرِ عِلْمٍ) فهذا العِلْمُ الذاتيُّ الذي يَكون بطريق العَقْل، وقوله تعالى: (وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ) هذا العِلمُ المكتَسَب؛ فالهدى مِن الرَّسول ﷺ، والكِتاب المنير القُرآن.

٤-ذم التكبر عن الحق .

٥-أن الجزاء من جنس العمل ، فمن تكبر أذله الله .

٦-أن الكفار الذين يجادلون في الله لهم عذاب في الدنيا والآخرة .

٧-أن تعذيب الله للكفار بسبب أعمالهم .

٨-تنزيه الله عن الظلم .

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)) .

[الحج : ١١] .

==========

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ) أي : ومن الناس من يعبد الله على جانب وطرف من الدين .

وهذا تمثيل للمذبذبين الذين لا يعبدون الله عن ثقة ويقين .

قال مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمَا: (عَلَى حَرْفٍ): عَلَى شَكٍّ

وَقَالَ غَيْرُهُمْ: عَلَى طَرَفٍ. وَمِنْهُ حَرْفُ الْجَبَلِ، أَيْ: طَرَفُهُ، أَيْ: دَخَلَ فِي الدِّينِ عَلَى طَرَفٍ، فَإِنْ وَجَدَ مَا يُحِبُّهُ اسْتَقَرَّ، وَإِلَّا انْشَمَرَ.

قال ابن الجوزي : قوله تعالى (على حرف) قال مجاهد ، وقتادة : "على شكٍّ" ، قال أبو عبيدة : كل شاكٍّ في شيء فهو على حرف لا يثبت ولا يدوم.

وبيان هذا أن القائم على حرف الشيء غير متمكِّن منه، فشبّه به الشاكُّ، لأنه قَلِقٌ في دينه على غير ثبات، ويوضحه قوله تعالى: (فإن أصابه خير) أي: رخاءٌ وعافية (اطمأنَّ به) على عبادة الله (إن أصابته فتنة) اختبار بجدب وقلّة مال (انقلب على وجهه)

أي: رجع عن دينه إلى الكفر ... والمعنى: انصرف إلى وجهه الذي توجه منه، وهو الكفر، (خسر الدنيا) حيث لم يظفر بما أراد منها، (و) خسر (الآخرة) بارتداده عن الدين. (زاد المسير) .

قال ابن عطية : هذه الآية نزلت في أعراب وقوم لا يقين لهم كان أحدهم اذا أسلم فاتفق له اتفاقات حسان من نمو ماله وولد ذكر يرزقه وغير ذلك قال هذا دين جيد وتمسك به لهذه المعاني ، وإن كان الأمر بخلاف ، تشاءم به وارتد كما صنع العرنيون وغيرهم ، قال هذا المعنى ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .

قال البقاعي : فهو مزلزل كزلزلة من يكون على حرف شفير أو جبل أو غيره، لا استقرار له، وكالذي على طرف من العسكر، فإن رأى غنيمة قر، وإن توهم خوفاً طار وفر .

عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه قال في قَولِه تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ) كان الرَّجُلُ يَقدَمُ المدينةَ، فإنْ وَلَدَت امرأتُه غُلامًا، ونُتِجَت خَيلُه، قال: هذا دِينٌ صالِحٌ. وإنْ لم تَلِدِ امرأتُه، ولم تُنتَجْ خَيلُه، قال: هذا دينُ سَوْءٍ) .

(**فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ**) كصحة ، ورزق ، ورخاء معيشة ، ورزق هنيء ، وولدت امرأته غلاماً .

(**اطْمَأَنَّ بِهِ**) أي : رَضِيَ عن الإسلامِ، واستقَرَّ وثَبَتَ على عبادةِ اللهِ .

قال الآلوسي : (اطمأن بِهِ) أي ثبت على ما كان عليه ظاهراً لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين الذين لا يزحزحهم عاصف ولا يثنيهم عاطف .

(**وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ**) الْفِتْنَةُ: الْبَلَاءُ–أَيْ: وَإِنْ أَصَابَهُ وَجَعُ المدينة، وَوَلَدَتِ امْرَأَتُهُ جَارِيَةً، وَتَأَخَّرَتْ عَنْهُ الصَّدَقَةُ، أَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَصَبْتُ مُنْذُ كُنْتُ عَلَى دِينِكَ هَذَا إِلَّا شَرًّا. وَذَلِكَ الْفِتْنَةُ.

وَهَكَذَا ذَكَرَ قَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَابْنُ جُرَيج، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآية .

قال البقاعي : (فتنة) مصيبة ولو قلت – بما يشير إليه التأنيث – في جسده أو معيشته يختبر بها ويظهر خبأة للناس .

(**انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ**) ترك دينه ورجع إلى الكفر .

وهذا بخلاف الراسخ في إيمانه ، فإنه إن أصابته سراء شكر ، وإن أصابته ضراء حمد وصبر ، فكل قضاء الله له خير.

(**خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ**) أضاع دنياه وآخرته ، فشقي الشقاوة الأبدية .

قال ابن كثير : أَيْ: فَلَا هُوَ حَصَل مِنَ الدُّنْيَا عَلَى شَيْءٍ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَقَدْ كَفَرَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، فَهُوَ فِيهَا فِي غَايَةِ الشَّقَاءِ وَالْإِهَانَةِ .

وقال البقاعي : (خسر الدنيا) أي بسبب أن ذلك لا يرد ما فاته منها ويكون سبب التقتير عليه وذهاب بركته (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) " إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه" .

وقال الرازي : ... فذلك لأنه يخسر في الدنيا العزة والكرامة وإصابة الغنيمة وأهلية الشهادة والإمامة والقضاء ولا يبقى ماله ودمه مصوناً ، وأما في الآخرة فيفوته الثواب الدائم ويحصل له العقاب الدائم (وذلك هُوَ الخسران المبين) .

وقال السعدي : الدنيا، فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله الذي جعل الردة رأسا لماله، وعوضا عما يظن إدراكه، فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قسم له، وأما الآخرة، فظاهر، حرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحق النار .

(**ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**) الواضح البيّن .

إنما وُصِفُوا بالخسران ، لأنهم باعوا الإيمان بالكفر ، فعظم خسرانهم .

والمبين : الذي فيه ما يبين للناس أنه خسران بأدنى تأمل ، والمراد أنه خسران شديد لا يخفى. (ابن عاشور) .

أصل الخسران في لغة العرب: هو نقصان مال التاجر، سواء كان نقصاً في ربح المال، أو نقصاً في رأس المال.

والخسران في اصطلاح الشرع: هو غبن الإنسان في حظوظه من ربه (جل وعلا) لأن الإنسان إذا غُبن في حظوظه من ربه (جل وعلا) فقد خَسِرَ الخُسْرَان المبين.

وقد أقسم الله (جل وعلا) – وهو أصدق من يقول – في سورة كريمة من كتابه – وكل سورة منه كريمة– ألا وهي (سورة العصر) أن الخسران لا ينجو منه إنسان كائناً ما كان إلا بأعمال معينة مبينة، وذلك في قوله (وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) (إِنَّ الْإِنسَانَ) معناه: إن كل إنسان كائناً من كان (لَفِي خُسْرٍ) (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) فهذا الخسران لا يُنجي منه شيء أبداً كما أقسم عليه رب السماوات والأرض إلا الإيمان والأعمال الصالحات، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، هذا الذي يُنجي من الخسران.

وأكبر الأدلة على خسرانهم أنفسهم: أنهم إن صاروا إلى النار أكبر مُنْيةٍ يتمنونها، وأكبر غرض يطلبونه: هو أن يموتوا وتعدم أنفسهم فتصير لا شيء؛ ولذلك يقولون (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ).

ولكن أمنيتهم العُظْمَى الَّتِي هِيَ الموت لا يحصلونها أبداً؛ لأن الله يقول (لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) ويقول (جل وعلا) في الكافر (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) (فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى).

الفوائد :

١. أن المنافق أو من في قلبه زيغ لا يثبت عند المحن وربما يرتد .

هذا بِخِلافِ الرَّاسِخِ في إيمانِه؛ فإنَّه إن أصابَتْه سَرَّاءُ شكَر، وإنْ أصابَتْه ضَرَّاءُ حَمِدَ وصَبَر؛ فكُلُّ قَضاءِ اللهِ له خيرٌ

قَالَ قَتَادَةُ: نِعْمَ الْعَبْدُ عَبْدٌ إِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ.

وَكَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ عَجَبٌ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خيراً له).

وفي المسند عنه (والذي نفسي بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن).

وفي لفظ (إن أمر المؤمن كله عجيب، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له).

وفي لفظ لأحمد (عجبتُ للمؤمن، إن أصابه خير حمِد الله وشكر، وإن أصابته مصيبةٌ حمِد الله وصبر، فالمؤمن يُؤجرُ في كل أمرِه، حتى في اللقمةِ يرفعُها إلى فيّ امرأته).

فالمؤمن في هذه الدنيا دائر بين نعمة ومصيبة، فالنعمة يقابلها بالشكر، والمصيبة يقابلها بالصبر، وهذا من أعظم علامات السعادة.

فالعبد لا ينفك عن هذه الأمور الثلاثة أبداً: إذا أذنب استغفر، وإذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

قال ابن القيم: فإن هذه الثلاثة هي عنوان سعادة العبد، وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفك عبد عنها أبداً، فإن العبد دائم التقلب بين هذه الأطباق الثلاث.

لماذا هذه هي عنوان السعادة؟

لأن الإنسان لا ينفك عن حال من هذه الحالات الثلاث.

إما أن يُعطَى، وإما أن يبتلى، وإما أن يذنب ويقع في الذنب. [فإن قام بوظيفة كل حالة فهو السعيد لأنه حقق عبودية الله فيها].

لأن الإنسان إما أن يكون في نعمة، فما هي وظيفة هذه النعمة؟ ما هو واجبه تجاه نعم الله؟

هو شكرها والقيام بشكرها.

وإما أن يقع بذنب – ولا يسلم أحد من الذنوب – فما هو الواجب على من وقع في ذنب؟ الواجب عليه أن يستغفر ربه وأن يتوب وأن يعود إلى الله.

وإما أن يكون في محنة وبلية ومصيبة؟ فما هو موقف المسلم إذا أصيب ببلاء أو مصيبة؟ الصبر والاحتساب الأجر عند الله.

فلذلك صارت هذه الثلاث من أعظم أسباب السعادة.

٢. أن المؤمن عند المحن يزداد لإيماناً بخلاف المنافق ومن في قلبه زيغ وقلة يقين .

قال تعالى (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً).

وقال تعالى (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا) .

٣. أن المؤمن عند الابتلاء يصبر ويرى أن ذلك لحكمة .

٤. لا بُدَّ مِن أذًى لكلِّ مَن كان في الدُّنيا، فإنْ لم يَصبِرْ على الأذَى في طاعةِ اللهِ، بلِ اختارَ المعصيةَ؛ كان ما يَحصُلُ له مِن الشرِّ أعظمَ ممَّا فرَّ منه بكثيرٍ (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا) ومَنِ احتَملَ الهوانَ والأذى في طاعةِ اللهِ على الكَرامةِ والعِزِّ في مَعصيةِ اللهِ –كما فعَلَ يُوسُفُ عليه السلامُ وغيرُه مِن الأنبياءِ والصَّالحينَ– كانتْ العاقبةُ له في الدُّنيا والآخِرَةِ، وكان ما حصَل له مِن الأذَى قد انقَلَب نعيمًا وسرورًا، كما أنَّ ما يَحصُلُ لأربابِ الذُّنوبِ مِن التنعُّمِ بالذُّنوبِ يَنقلِبُ حُزنًا وثُبورًا

٥. العبد على الحَقيقةِ مَن قام بعبوديَّةِ اللهِ على اختِلافِ الأحوالِ، وأمَّا عَبدُ السَّرَّاءِ والعافيةِ الذي يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ، فليس مِن عَبيدِه الذين اختارَهم لعُبوديَّتِه؛ فلا رَيبَ أنَّ الإيمانَ الذى يَثبُتُ على محَلِّ الابتِلاءِ والعافيةِ هو الإيمانُ النَّافِعُ وَقتَ الحاجةِ، وأمَّا إيمانُ العافيةِ فلا يكادُ يَصحَبُ العَبدَ، ويُبلِّغُه مَنازِلَ المؤمِنينَ، وإنَّما يَصحَبُه إيمانٌ يَثبُتُ على البلاءِ والعافيةِ

(يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)) .

[الحج : ١٢-١٣] .

==========

(يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ) من الأصنام والأنداد .

ومعنى (يدعو) يعبد .

قال الرازي : أنه المشرك الذي يعبد الأوثان .

قال ابن جزي : يدعو يعبد .

وقال الآلوسي : والمراد بالدعاء العبادة .

وهذا صفة كل مدعو ومعبود من دون الله، فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً .

أيْ : يَدْعُو ذَلِكَ الْكَافِرُ الْمَذْكُورُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، مَا لَا يَضُرُّهُ ، إنْ تَرَكَ عِبَادَتَهُ وَكَفَرَ بِهِ ، وَمَا لَا يَنْفَعُهُ إنْ عَبَدَهُ وَزَعَمَ أَنَّهُ يَشْفَعُ لَهُ وَمَا ذَكَرَهُ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ أَنَّ الْأَوْثَانَ لَا تَضُرُّ مَنْ كَفَرَ بِهَا ، وَلَا تَنْفَعُ مَنْ عَبَدَهَا بَيَّنَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

وقال تعالى (قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرّاً ولا نفعاً) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ إبْرَاهِيمَ (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُون) .

والمقصود بوصفها بأنها لا تضر ولا تنفع: بطلان عبادتها، لأن من شأن المعبود أن يملك الضر والنفع، وأن يكون مثيباً على الطاعة ومعاقباً على المعصية.

كما قال تعالى (ويَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُون).

وقال تعالى (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم).

وقال سُبحانه (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِين).

هذه الآية تبين أنه لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله

(**ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ**) أي : ذلك هو نهاية الضلال الذي لا ضلال بعده .

الذي قد بلغ في البعد إلى حد النهاية، حيث أعرض عن عبادة النافع الضار، الغني المغني ، وأقبل على عبادة مخلوق مثله أو دونه، ليس بيده من الأمر شيء بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب . (السعدي) .

(**يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ**) **إنْ قِيلَ** : مَا وَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَ نَفْيِهِ تَعَالَى النَّفْعَ وَالضُّرَّ مَعًا عَنْ ذَلِكَ الْمَعْبُودِ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ (مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ) مَعَ إثْبَاتِهِمَا فِي قَوْلِهِ (يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ) لِأَنَّ صِيغَةَ التَّفْضِيلِ فِي قَوْلِهِ: «أَقْرَبُ» دَلَّتْ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ نَفْعًا وَضَرًّا، وَلَكِنَّ الضَّرَّ أَقْرَبُ مِنَ النَّفْعِ .

من الأقوال التي قيلت : أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى فِي الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ، فَالْأَصْنَامُ لَا تَنْفَعُ مَنْ عَبَدَهَا ، وَلَا تَضُرُّ مَنْ كَفَرَ بِهَا ؛ وَلِذَا قَالَ فِيهَا : مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ وَالْقَرِينَةُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الْأَصْنَامُ ، هِيَ التَّعْبِيرُ بِلَفْظَةِ «مَا» فِي قَوْلِهِ : (مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ) لِأَنَّ لَفْظَةَ «مَا» تَأْتِي لِمَا لَا يَعْقِلُ ، وَالْأَصْنَامُ لَا تَعْقِلُ .

أَمَّا الْآيَةُ الْأُخْرَى فَهِيَ فِي مَنْ عَبَدَ بَعْضَ الطُّغَاةِ الْمَعْبُودِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، كَفِرْعَوْنَ الْقَائِلِ (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) (لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) ، فَإِنَّ فِرْعَوْنَ وَنَحْوَهُ مِنَ الطُّغَاةِ الْمَعْبُودِينَ قَدْ يُغْدِقُونَ نِعَمَ الدُّنْيَا عَلَى عَابِدِيهِمْ ؛ وَلِذَا قَالَ لَهُ الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا سَحَرَةً (أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) فَهَذَا النَّفْعُ الدُّنْيَوِيُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا سَيُلَاقُونَهُ مِنَ الْعَذَابِ وَالْخُلُودِ فِي النَّارِ كَلَا شَيْءٍ ، فَضَرُّ هَذَا الْمَعْبُودِ بِخُلُودِ عَابِدِهِ فِي النَّارِ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ بِعَرَضٍ قَلِيلٍ زَائِلٍ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا ، وَالْقَرِينَةُ عَلَى أَنَّ الْمَعْبُودَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ بَعْضُ الطُّغَاةِ الَّذِينَ هُمْ مَنْ جِنْسِ الْعُقَلَاءِ هِيَ التَّعْبِيرُ بِـ «مَنْ» الَّتِي تَأْتِي لِمَنْ يَعْقِلُ فِي قَوْلِهِ : يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ .

وقيل : ضره في الدنيا بالذل والخزي وفي الآخرة بالعذاب ، أسرع إليه من نفعه الذي يتوقعه بعبادته ، وهو الشفاعة والتوسل به إلى الله تعالى . (القاسمي) .

(**لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ**) أي: لَبِئسَ النَّاصِرُ هذا المعبودُ مِن دُونِ اللهِ! ولَبِئسَ المعاشِرُ والمصاحِبُ هو؛ فإنَّه لا يَنصُرُ عابِدَه، ولا يجلِبُ له خيرًا ولا نَفعًا .

فالمولى هو الولي والناصر ، والعشير الصاحب والمعاشر .

فإن المقصود من المولى والعشير، حصول النفع، ودفع الضرر، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فإنه مذموم ملوم.

قال البقاعي : (لبئس المولى) لكونه ليس مرجو النفع كما هو مخشي الضر (ولبئس العشير) لكونه ليس مأمون الضر فهو غير صالح لولاية ولا لعشرة بوجه.

وقال ابن عاشور : جملة (لبئس المولى ولبئس العشير } إنشاء ذم للأصنام التي يدعونها بأنها شر الموالي وشر العشراء لأن شأن المولى جلب النفع لمولاه ، وشأن العشير جلب الخير لعشيره فإذا تخلف ذلك منهما نادراً كان مذمة وغضاضة ، فأما أن يكون ذلك منه مطرداً فذلك شر الموالي.

الفوائد :

١. تسفيه المشرك وذمه لدعائه آلهة لا تضر ولا تنفع .
٢. أن الذي لا ينفع ولا يضر لا يستحق العبادة .
٣. أن الذي ينفع ويضر هو الله
٤. برهان على وحدانية الله تعالى ، لانفراده تعالى بالضر والنفع.
٥. على الإنسان أن يعلق رجاءه بالله تعالى ، لأنه هو سبحانه مالك الضر والنفع.

قال ابن رجب رحمه الله: واعلم أنَّ سؤالَ اللهِ تعالى دونَ خلقه هوَ المتعين؛ لأنَّ السؤال فيهِ إظهار الذلِّ من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار ، وفيه الاعترافُ بقدرةِ المسؤول على دفع هذا الضَّرر ، ونيل المطلوب ، وجلبِ المنافع ، ودرءِ المضارِّ ، ولا يصلح الذلُّ والافتقار إلاَّ لله وحدَه؛ لأنَّه حقيقة العبادة ، وكان الإمامُ أحمد يدعو ويقول: اللهمَّ كما صُنتَ وجهي عَنِ السُّجود لغيرك فصُنْه عن المسألة لغيرك ، ولا يقدر على كشف الضرِّ وجلب النفع سواه ، كما قال (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ) ، وقال (مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ).

(**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤)**) .

[الحج : ١٤] .

==========

(**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا**) بقلوبهم .

(**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) أي: وعملوا الأعمال الصالحات من واجبات ومستحبات.

– والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات، وأما إذا عُطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وبكل ما يجب الإيمان به.

– والعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون خالصاً لله، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني: أن يكون متابعاً للنبي ﷺ، لقوله ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

– ودائماً يقرن الله العمل بالصالح، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحاً.

قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...).

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ...).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً).

– قال السعدي: ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته.

(**جَنَّاتٍ**) الجنات جمع جنة، والجنة في لغة العرب: البستان، لأن أشجاره الملتفة تجن الداخل فيه، وجاء إطلاق الجنة على البستان في القرآن في قوله (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) أي البستان، وفي قوله (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ).

وأما في الاصطلاح: فهي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

– قوله تعالى (جنات) دليل على أن الجنات أنوع، كما قال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ثم قال تعالى (ومن دونهما جنتان) وقال ﷺ (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما).

– قال الشيخ ابن عثيمين: (جنات) بالجمع، وأحياناً يقال بالإفراد (جنة) فإذا كانت بالإفراد فالمراد بها مطلق الجنس، وإذا قيلت بالجمع فالمراد بها أنواع الجنات .

(**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**) أي من تحت أشجارها، قال ابن الجوزي: أي من تحت شجرها لا من تحت أرضها.

قال ابن عاشور: وأكمل محاسن الجنات جريان المياه في خلالها وذلك شيء اجتمع البشر كلهم على أنه من أنفس المناظر لأن في الماء طبيعة الحياة ولأن الناظر يرى منظراً بديعاً وشيئاً لذيذاً.

قال ابن القيم: وهذا يدل على أمور:

أحدها: وجود الأنهار فيها. الثاني: أنها جارية لا واقفة. الثالثة: أنها تحت غرفهم وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار الدنيا.

– وهذه الأنهار جاء تسميتها في قوله تعالى (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفّىً).

– قال ابن القيم: فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا.

فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصاً، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربها، وآفة العسل عدم تصفيته، وهذا من آيات الرب سبحانه وتعالى أن تجري أنهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا بإجرائها ويجريها في غير أخدود وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو.

– وهذه الأنهار لا تنضب ولا تنقص، وتجري من غير أخدود.

قال ابن القيم في النونية:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضانِ

(**إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**) أي : يفعل الذي يريده ويشاؤه ، فيضل من يشاء بعدله ، ويهدي من يشاء بفضله (لا معقب لحكمه) (فعال لما يريد) .

الفوائد :

١. أن الجنة لمن آمن وعمل صالحاً.

٢. الحث على الإيمان والعمل الصالح.

٣. أن العمل لا يكون صالحاً إلا بشرطين : الإخلاص ، والمتابعة .

٤. التحذير من الرياء ومن البدعة.

٥. أن الجنات أنواع.

٦. إثبات الجنة.

٧. إثبات أن في الجنة أنهاراً.

٨. عظم نعيم الجنة.

(مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ (١٦)) .

[الحج : ١٥-١٦] .

==========

(مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ...) للمفسرين في معنى الآية قولان :

الأول : أن الضمير في " ينصره " للرسول ﷺ .

والمعنى على هذا : من كان من الكفار يظن أن لن ينصر الله محمداً فليختنق بحبل فإن الله ناصره لابد .

وهذا ما رجحه ابن كثير .

ورجحه : الفراء ، والزجاج ، والقرطبي ، والنسفي ، والخازن ، والآلوسي .

قال ابن كثير : قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ أَيْ بِحَبْلٍ إِلَى السَّماءِ أَيْ سَمَاءِ بَيْتِهِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ يَقُولُ ثُمَّ لِيَخْتَنِقْ بِهِ .

وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاءٌ وَأَبُو الْجَوْزَاءِ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ .

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ أَيْ لِيَتَوَصَّلْ إِلَى بُلُوغِ السَّمَاءِ، فَإِنَّ النَّصْرَ إِنَّمَا يَأْتِي مُحَمَّدًا مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ذَلِكَ عَنْهُ إِنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ .

وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَصْحَابِهِ أَوْلَى وَأَظْهَرُ فِي الْمَعْنَى وأبلغ في التهكم، فإن المعنى من كان يظن أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِنَاصِرٍ مُحَمَّدًا وَكِتَابَهُ وَدِينَهُ، فَلْيَذْهَبْ فَلْيَقْتُلْ نَفْسَهُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ غَائِظَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ لَا مَحَالَةَ، .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ) .

وَلِهَذَا قَالَ: فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي مِنْ شَأْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وَقَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ: فَلْيَنْظُرْ هَلْ يَشْفِي ذَلِكَ مَا يَجِدُ فِي صدره من الغيظ. وَقَوْلُهُ:

والثاني : أن الضمير يعود على الإنسان نفسه والمعنى : من ظن بسبب ضيق صدره وكثرة غمه أن لن ينصره الله فليختنق وليمت بغيظه .

وهذا ما رجحه صاحب التسهيل

قال ابنُ جزي: القَولُ الثَّاني: أنَّ الضَّميرَ في يَنْصُرَهُ عائدٌ على مَنْ، والمعنى على هذا: مَن ظنَّ بسَبَبِ ضِيقِ صَدرِه وكَثرةِ غَمِّه أنْ لن يَنصُرَه اللهُ، فلْيَختَنِقْ ولْيَمُتْ بغَيظِه؛ فإنَّه لا يَقدِرُ على غيرِ ذلك، فمُوجبُ الاختناقِ على هذا القُنوطُ والسَّخَطُ من القَضاءِ، وسوءُ الظَّنِّ باللهِ حتى ييأسَ مِن نَصْرِه؛ ولذلك فَسَّر بعضُهم أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ بمعنى: أنْ لن يَرزُقَه. وهذا القَولُ أرجَحُ

وقيل : من كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة .

(**فلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ**) أي : حَبْلٌ يُعلَّقُ في سَقفِ بَيتٍ أو غيرِه، وكلُّ شَيءٍ علاك وأظَلَّك فهو سماءٌ.

واختاره : ابن جرير، والسمعاني –ونسبه لجميعِ المفسرينَ–، وابن عطية، ونسبه ابنُ الجوزي إلى الأكثرين .

وقيل: المرادُ بالسماءِ: السماءُ المعروفةُ .

ومعنى الآيةِ على ذلك: مَن كان يظنُّ أنْ لن ينصرَ اللهُ نبيَّه في أمرِه، فلْيَمْدُدْ ذلك الظانُّ بحَبلٍ إلى السماءِ، ولْيَرْقَ إليها، وليقطَعْ عن النبيِّ ﷺ النصرَ النازلَ عليه مِن السماءِ .

(**ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**) أي: ثُمَّ لْيَختَنِقْ بالحَبلِ، فلْيَنظُرْ حينَها: هل يُذهِبَنَّ صَنيعُه هذا ما يَغيظُه؟! كلَّا، لا يُغْني ذلك عنه شيئًا، وإنما يقَعُ ضَرَرُ كَيدِه على نفْسِه، واللهُ مُتِمُّ نُورِه، وناصرٌ نبيَّه .

(**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ**) أي : القرآن .

(**آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**) أي : واضحات في لفظها ومعناها حجة من الله على الناس .

(**وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ**) أَيْ : يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ وَالْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ فِي ذلك (لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ) أَمَّا هُوَ فَلِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَعِلْمِهِ وَقَهْرِهِ وَعَظَمَتِهِ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الحساب.

الفوائد :

١. هذه الآيةُ الكَريمةُ فيها مِنَ الوَعدِ والبِشارةِ بنَصرِ اللهِ لدِينِه ولِرَسولِه وعبادِه المؤمِنينَ ما لا يَخفَى، ومِن تَأييسِ الكافرينَ الذين يُريدونَ أن يُطفِئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم، واللهُ مُتِمُّ نُورِه، ولو كَرِهَ الكافِرونَ . (السعدي) .

٢. وجوب الثقة بوعد الله بنصر دينه ونبيه ﷺ .

٣. تأييس لكل من يريد من الكافرين وغيرهم الكيد للإسلام وإطفاء نور الله .

٤. أن القرآن منزل .

٥. عظمة الله تعالى .

٦. الثناء على القرآن الكريم .

٧. أن الهداية بيد الله تعالى .

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)**) .

[الحج : ١٧] .

==========

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**) أي آمنوا بمحمد ﷺ .

(**وَالَّذِينَ هَادُوا**) وهم اليهود، سموا بذلك، قيل: من التوبة كقول موسى (إنا هدنا إليك) أي تبنا إليك، وقيل: نسبة إلى يهود أكبر أولاد يعقوب، وقيل: لأنهم يتهودون، أي يتحركون عند القراءة.

(**وَالنَّصَارَى**) هم أتباع عيسى، سموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقيل: سموا بذلك لأنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة.

(**وَالصَّابِئِينَ**) اختلف العلماء فيهم، فقيل: هم قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين، وهذا قول مجاهد، وقيل: هم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور، وقيل: هم قوم يعبدون الملائكة.

قال ابن كثير: وأظهر الأقوال والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتنونه، ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئ، أي أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك. وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم.

(**وَالْمَجُوسَ**) وهم عبدةُ النيرانِ، القائلون: إنَّ للعالَمِ أصلينِ: النُّور والظُّلمة. وقيل: هم قومٌ عبَدوا الشَّمسَ والقمرَ. وقيل: هم الثنويةُ الذين يؤْمنون بوجودِ إلهينِ؛ أحدُهما للخيرِ، والآخرُ للشرِّ.

قال ابن جزي : (والمجوس) هم الذين يعبدون النار ، ويقولون : إن الخير من النور والشر من الظلمة .

(**وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**) بالله تعالى معه غيره .

(**إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) أي : فيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ، فَيُدْخِلُ مَنْ آمَنَ بِهِ الْجَنَّةَ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ النَّارَ

(**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) فَإِنَّهُ تَعَالَى شَهِيدٌ عَلَى أَفْعَالِهِمْ، حَفِيظٌ لِأَقْوَالِهِمْ، عَلِيمٌ بِسَرَائِرِهِمْ وَمَا تكن ضمائرهم.

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) .

قال الرازي : (إِنَّ الله على كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) فالمراد أنه يفصل بينهم وهو عالم بما يستحقه كل منهم فلا يجري في ذلك الفصل ظلم ولا حيف .

تنبيه :

قال تعالى في سورة البقرة (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ).

هذه الآية هي قطعاً في الأمم التي كانت قبل مبعث النبي، فإن الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب، فمن تبع الأنبياء وقبل دعوتهم واستجاب لهم فإن الله وعده بالرحمة والجنة، وأما بعد مبعث النبي ﷺ فإن الله لا يقبل من أحد سوى الإسلام.

كما قال (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ).

وقال النبي ﷺ (لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) رواه مسلم.

– فقد جاءت الآيات القرآنية في كفر اليهود والنصارى، وكونهم مشركين لا يقبل الله منهم إيماناً ولا عملاً قال تعالى (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ).

وقال تعالى (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرائيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ).

– فالمراد إذاً من الآية (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ ...) الإخبار عمن مضى ممن كان متمسكاً بدين حقٍّ من اليهود والنصارى والصابئين، ومن المؤمنين بعد مبعث النبي ﷺ .

الفوائد :

١-فصل الله بين الأمم يوم القيامة .

٢ - بيان عدل الله.

٣-علم الله الواسع .

٤ - أن العبرة عند الله بالإيمان والعمل الصالح.

٥ - وجوب الإيمان باليوم الآخر.

٦-أن يوم القيامة يوم شديد رهيب، أهواله كبيرة ، ولذلك وصفه الله بأوصاف كثيرة:

يوم الفرار.

قال تعالى (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ).

يوم التغابن.

قال تعالى (ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ). سمي بذلك: لأنه يظهر فيه غبن الكافر بتركه الإيمان.

يوم الجمع.

قال تعالى (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ). سمي بذلك: لأن الله يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد.

يوم تكشف فيه صحائف الأعمال.

قال تعالى (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ).

يوم الدين.

قال تعالى (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) أي يوم الجزاء والحساب.

يوم الفصل.

قال تعالى (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً). سمي بذلك: لأن الله يفصل فيه بين الخلائق.

يوم الوعيد.

قال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ).

يوم عقيم.

قال تعالى (حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ).

سمي بذلك: لأنه لا يوم بعده.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء (١٨)) .

[الحج : ١٨] .

==========

(ألم تر ...) الاستفهام في قوله أَلَمْ تَرَ ... للتقرير. والرؤية هنا بمعنى العلم وذلك لأن سجود هذه الكائنات لله- تعالى- آمنا به عن طريق الإخبار دون أن نرى كيفيته.

قال الرازي : الرؤية ههنا : ... أنها العلم أي ألم تعلم أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض وإنما عرف ذلك بخبر الله لا أنه رآه.

وقال ابن عطية : (ألم تر) تنبيه رؤية القلب ، وهذه آية إعلام بتسليم المخلوقات جمع لله وخضوعه .

والسجود في اللغة: التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وما يشبهه. وخص في الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة.

والمراد به هنا: دخول الأشياء جميعها تحت قبضة الله تعالى وتسخيره وانقيادها لكل ما يريده منا انقيادا تاما، وخضوعها له- عز وجل- بكيفية هو الذي يعلمها. فنحن نؤمن بأن هذه الكائنات تسجد لله تعالى ونفوض كيفية هذا السجود له تعالى .

قال ابن كثير: يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُ يَسْجُدُ لِعَظَمَتِهِ كُلُّ شَيْءٍ طَوْعًا وَكَرْهًا، وَسُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ مما يختص به، كَمَا قَالَ تَعَالَى: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ) .

وَقَالَ هَاهُنَا: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ أَيْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي أَقْطَارِ السموات، وَالْحَيَوَانَاتِ فِي جَمِيعِ الْجِهَاتِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) .

وَقَوْلُهُ (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ) إِنَّمَا ذَكَرَ هَذِهِ عَلَى التَّنْصِيصِ، لِأَنَّهَا قَدْ عُبِدَتْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَبَيَّنَ أَنَّهَا تَسْجُدُ لِخَالِقِهَا وَأَنَّهَا مَرْبُوبَةٌ مُسَخَّرَةٌ (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ) .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ، ثُمَّ تُسْتَأْمَرُ فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ) .

وَفِي الْمُسْنَدِ وَسُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ مَاجَهْ فِي حَدِيثِ الْكُسُوفِ (إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا تَجَلَّى لِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ خَشَعَ لَهُ) .

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: مَا فِي السَّمَاءِ نَجْمٌ وَلَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ إِلَّا يَقَعُ لله ساجدا حين يغيب .

قال ابن جزي : وليس المراد بالسجود هنا السجود المعروف ، لأنه لا يصح في حق الشمس والقمر وما ذكر بعدهما ، وإنما المراد به الانقياد ثم إن الانقياد يكون على وجهين : أحدهما الانقياد لطاعة الله طوعاً ، والآخر الانقياد لما يجري الله على المخلوقات في أفعاله وتدبيره شاؤوا أو أبوا .

(وَالدَّوَابُّ) أَيِ الْحَيَوَانَاتُ كُلُّهَا .

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، نَهَى عَنِ اتِّخَاذِ ظُهُورِ الدَّوَابِّ مَنَابِرَ ، فَرُبَّ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ وَأَكْثَرُ ذِكْرًا لِلَّهِ تعالى مِنْ رَاكِبِهَا.

(وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) أَيْ : يَسْجُدُ لِلَّهِ طَوْعًا مُخْتَارًا مُتَعَبِّدًا بِذَلِكَ .

(**وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ**) أَيْ مِمَّنِ امْتَنَعَ وَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ .

(**وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ**) أي : ومن يهنه الله ويخزه، فما له من مكرم يكرمه، أو منقذ ينقذه مما هو فيه من شقاء، إن الله تعالى يفعل ما يشاء فعله بدون حسيب يحاسبه، أو معقب يعقب على حكمه .

(**إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء**) لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، يهدي من يشاء بفضله ، ويضل من يشاء بعدله .

الفوائد :

١. عظمة الله تعالى .

٢. خضوع وتذلل الخلائق كلها لله .

٣. مشروعية السجود عند هذه الآية ، وفي الحديث (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ...) .

٤. في تخصيص الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر بالذكر بعد التعميم تأكيد سجودها لله ، والرد على من عبدها .

٥. من أراد العزة فبطاعة الله .

٦. من أهانه الله وأذله فلا مكرم له .

فالعزيز من أعزه الله .

(**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)**) .

[الحج : ١٩-٢٢] .

==========

(**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي ربهم**) أي : هذا فريقان ، وهم المؤمنون والكفار .

قال ابن الجوزي : اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال.

أحدها : أنها نزلت في النفر الذين تبارزوا للقتال يوم بدر، حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة ابنَي ربيعة، والوليد بن عتبة، هذا قول أبي ذر.

والثاني : أنها نزلت في أهل الكتاب ، قالوا للمؤمنين : نحن أولى بالله ، وأقدم منكم كتاباً ، ونبيُّنا قبل نبيكم ، وقال المؤمنون : نحن أحق بالله ، آمنا بمحمد ، وآمنا بنبيّكم وبما أنزل الله من كتاب ، وأنتم تعرفون نبيَّنا ، ثم كفرتم به حسداً ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس ، وقتادة.

والثالث : أنها في جميع المؤمنين ، والكفار ، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن ، وعطاء ، ومجاهد.

والرابع : أنها نزلت في اختصام الجنة والنار ، فقالت النار : خلقني الله لعقوبته ، وقالت الجنة : خلقني الله لرحمته ، قاله عكرمة.

وقال ابن كثير : ثبت في الصحيحين : عن أَبِي ذَرٍّ: أَنَّهُ كَانَ يُقْسِمُ قَسَمًا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ نَزَلَتْ فِي حَمْزَةَ وَصَاحِبَيْهِ، وَعُتْبَةَ وَصَاحِبَيْهِ يَوْمَ بَرَزُوا فِي بَدْرٍ .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ قَالَ: اخْتَصَمَ الْمُسْلِمُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: نَبِيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ وَكِتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، فَنَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ، وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: كِتَابُنَا يَقْضِي عَلَى الْكُتُبِ كُلِّهَا وَنَبِيُّنَا خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، فَنَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ، فَأَفْلَجَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُ، وَأَنْزَلَ هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ وَكَذَا .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ اخْتَصَمَا فِي الْبَعْثِ، وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ هُوَ وَعَطَاءٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ قَالَ: هِيَ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، قَالَتِ النَّارَ: اجْعَلْنِي لِلْعُقُوبَةِ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: اجْعَلْنِي لِلرَّحْمَةِ.

وَقَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ: إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْكَافِرُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ يَشْمَلُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا، وَيَنْتَظِمُ فِيهِ قِصَّةُ يَوْمِ بَدْرٍ وَغَيْرُهَا، فَإِنَّ المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل، وَالْكَافِرُونَ يُرِيدُونَ إِطْفَاءَ نُورِ الْإِيمَانِ وَخُذْلَانَ الْحَقِّ وَظُهُورَ الْبَاطِلِ، وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، وَهُوَ حَسَنٌ .

وممن رجح العموم :

قال ابن جرير: الآيةَ قد تنزِلُ بسَبَبٍ مِن الأسبابِ، ثُمَّ تكونُ عامَّةً في كلِّ ما كانَ نظيرَ ذلك السَّبَبِ. وهذه مِن تلك؛ وذلك أنَّ الَّذينَ تبارَزوا إنَّما كانَ أحدُ الفريقينِ أهلَ شِرْكٍ وكفرٍ باللَّهِ، والآخَرُ أهلَ إيمانٍ باللَّهِ وطاعةٍ له، فكلُّ كافرٍ في حُكْمِ فريقِ الشِّرْكِ منهما في أنَّه لأهلِ الإيمانِ خَصْمٌ، وكذلك كلُّ مُؤمنٍ في حُكمِ فريقِ الإيمانِ منهما في أنَّه لأهلِ الشِّركِ خَصْمٌ .

والرازي : فقال : ذكروا في تفسير الخصمين وجوهاً : أحدها : المراد طائفة المؤمنين وجماعتهم وطائفة الكفار وجماعتهم وأن كل الكفار يدخلون في ذلك ... ثم قال : والأقرب هو الأول لأن السبب وإن كان خاصاً فالواجب حمل الكلام على ظاهره .

وابن عطية : فقال : وقال مجاهد وعطاء بن أبي رباح والحسن بن أبي الحسن وعاصم والكلبي : الإشارة إلى المؤمنين والكفار على العموم ع وهذا قول تعضده الآية .

وابن جزي . فقال : هَذَانِ خَصْمَانِ الإشارةُ إلى المؤمنينَ والكفَّارِ على العمومِ، ويدلُّ على ذلك ما ذُكِر قبلَها مِن اختلافِ الناسِ في أديانِهم، وهو قولُ ابنِ عباسٍ .

وقال أبو السعود : أي: فريقُ المؤمنينَ، وفريقُ الكفرةِ المقسَّمُ إلى الفِرَقِ الخَمسِ .

(**فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ**) أَيْ : قَطَّعَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ النَّارِ ثِيَابًا ، وَأَلْبَسَهُمْ إِيَّاهَا تَتَقَدُّ عَلَيْهِمْ .

كَقَوْلِهِ فِيهِمْ (سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ) وَالسَّرَابِيلُ : هِيَ الثِّيَابُ الَّتِي هِيَ الْقُمُصُ .

(**يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ**) أي: يُصَبُّ على رُؤوسِ الكُفَّارِ الماءُ المغلي الشَّديدُ الحَرارةِ .

كما قال تعالى (ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) .

وَالْحَمِيمُ : الْمَاءُ الْبَالِغُ شِدَّةَ الْحَرَارَةِ .

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ) .

(**يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ**) أي: يُذابُ بالحَميمِ المصبوبِ فَوقَ رُؤوسِ الكُفَّارِ ما في بُطونِهم -مِنَ اللَّحمِ والشَّحمِ، والأمعاءِ والأحشاءِ -، والجلودُ .

قال الشنقيطي : وَقَوْلُهُ (وَالْجُلُودُ) الظَّاهِرُ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى «مَا» مِنْ قَوْلِهِ : (يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ) الَّتِي هِيَ نَائِبُ فَاعِلِ «يُصْهَرُ» وَعَلَى هَذَا الظَّاهِرِ الْمُتَبَادِرِ مِنَ الْآيَةِ فَذَلِكَ الْحَمِيمُ يُذِيبُ جُلُودَهُمْ ، كَمَا يُذِيبُ مَا فِي بُطُونِهِمْ لِشِدَّةِ حَرَارَتِهِ .

إِذِ الْمَعْنَى : يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ ، وَتُصْهَرُ بِهِ الْجُلُودُ ؛ أَيْ : جُلُودُهُمْ ، فَالْأَلِفُ وَاللَّامُ قَامَتَا مَقَامَ الْإِضَافَةِ .

(**وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ**) أي: وللكُفَّارِ في جهَنَّمَ مَرازِبُ ومَطارِقُ مِن حَديدٍ، تَضرِبُهم وتَدفَعُهم بها خَزَنةُ النَّارِ مِن الملائِكةِ .

قال ابنُ جرير: تَضرِبُ رُؤوسَهم بها الخَزَنةُ إذا أرادوا الخروجَ مِن النَّارِ، حتى تَرجِعَهم إليها .

(**كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا**) أي : أَنَّ أَهْلَ النَّارِ كُلَّمَا أَرَادُوا الْخُرُوجَ مِنْهَا ، لِمَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْغَمِّ فِيهَا

عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْهَا ، أُعِيدُوا فِيهَا ، وَمُنِعُوا مِنَ الْخُرُوجِ .

(**وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**) أي : وتقول لهم الملائكة توبيخاً ذوقوا عذاب الحريق ، المحرق للقلوب والأبدان .

كما قال تعالى في سورة السجدة (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ . وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

عذابهم دائم :

قال تعالى (لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) ،

ويقول (جل وعلا) في الكافر (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) .

(فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى).

الفوائد :

١-تخاصم المؤمنين والكفار في ربهم ودينه .

٢-بيان شيء من عذاب الكفار في النار .

قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ).

وقال تعالى (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ. لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ).

وقال تعالى (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ. رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ. قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ).

وقال تعالى (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ).

وقال تعالى (كَلَّا إِنَّهَا لَظَى. نَزَّاعَةً لِلشَّوَى. تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى).وقال تعالى (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ).

وقال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ. قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ).وقال تعالى (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً. لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً).

وقال تعالى (وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ).

وقال تعالى (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً).

وقال تعالى (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ. لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ). وقال تعالى (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ).

وقال ﷺ (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «تَدْرُونَ مَا هَذَا». قَالَ قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ (هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفاً فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا).

وعَنْ سَمُرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حُجْزَتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى عُنُقِهِ) رواه مسلم.

وقال ﷺ (إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً مَنْ لَهُ نَعْلاَنِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ مَا يَرَى أَنَّ أَحَداً أَشَدُّ مِنْهُ عَذَاباً وَإِنَّهُ لأَهْوَنُهُمْ عَذَاباً) متفق عليه.

وقال ﷺ (يُرْسَلُ الْبُكَاءُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ، فَيَبْكُونَ حَتَّى يَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ، ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَ حَتَّى يَصِيرَ فِي وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الأُخْدُودِ، لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهِ السُّفُنُ لَجَرَتْ) رواه ابن ماجه.

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)) .

[الحج : ٢٣-٢٤] .

==========

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) تقدم شرحها .

(يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا) أي: يُحَلِّي اللهُ المؤمنينَ في الجنَّةِ -رِجالًا ونساءً- أساوِرَ مِن ذَهَبٍ، ويُحلَّونَ فيها لُؤلؤًا.

عن أبي هُريرةَ ﷺ، قال: سَمِعْتُ خليلي ﷺيقولُ (تَبلُغُ الحِليةُ مِن المؤمنِ حَيثُ يَبلُغُ الوُضوءُ)

(وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) أي: ولِباسُ المؤمنينَ في الجنَّةِ ثِيابٌ مِن حَريرٍ .

قال ابن كثير : فِي مُقَابَلَةِ ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ الَّتِي فُصِّلَتْ لَهُمْ، لِبَاسُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْحَرِيرِ إِسْتَبْرَقِهِ وَسُنْدُسِهِ .

كَمَا قَالَ (عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً إِنَّ هَذَا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً) .

وقال اللهُ تعالى (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا) .

قال ابنُ كَثيرٍ: (قَولُه: وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا أي: بسَبَب صَبْرِهم أعطاهم ونَوَّلهم وبَوَّأهم جَنَّةً وَحَرِيرًا أي: مَنزِلًا رَحبًا، وعَيشًا رَغْدًا ولِباسًا حَسَنًا)

وَفِي الصَّحِيحِ (لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَلَا الدِّيبَاجَ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ مَنْ لَبِسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَة) .

ثيابُ أهلِ الجَنَّةِ وحُلِيُّهم لا تَبلى ولا تَفنى

عَن أبي هُرَيرةَ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال (مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ يَنعَمُ لا يَبأَسُ، لا تَبلى ثيابُه، ولا يَفنى شَبابُه) .

قال البيضاويُّ: مَعناه: أنَّ الجَنَّةَ دارُ الثَّباتِ والقَرارِ، وأنَّ التَّغيُّرَ لا يَتطَرَّقُ إليها، فلا يَشُوبُ نَعيمَها بُؤسٌ، ولا يَعتَريه فسادٌ ولا تَغيُّرٌ؛ فإنَّها ليسَت دارَ الأضدادِ ومَحَلَّ الكونِ والفَسادِ .

(وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ) قيل: المرادُ بقوله: الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ: شهادة أنْ لا إله إلا اللهُ .

واختاره ابن جرير .

وقيل : هو قولهم الحمد لله الذي صدقنا وعده.

قال ابن جزي: الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ قيل: هو لا إلهَ إلَّا اللهُ. واللفظُ أعمُّ مِن ذلك .

وقال السعدي : القولِ الذي أفضلُه وأطيبُه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيّبة التي فيها ذِكرُ الله، أو إحسانٌ إلى عباد الله .

وقال ابنُ عطية: الطيّب من القولِ: لا إله إلا اللهُ، وما جرَى معها مِن ذِكرِ الله تعالى، وتسبيحِه وتقديسِه، وسائر كلامِ أهل الجَنَّة؛ من محاورةٍ وحديثٍ طيّبٍ؛ فإنَّها لا تَسمعُ فيها لاغيةً .

وقال ابنُ كثير : وقد قال بعضُ المفسِّرين في قولِه: وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ أي: القرآنِ. وقيل: لا إلهَ إلَّا اللهُ. وقيل: الأذكارُ المشروعةُ،... وكلُّ هذا لا يُنافي ما ذَكرناه، واللهُ أعلم .

فأرشدهم ووفقه إلى الطيب والحسن من القول ، وألهمهم إياه من التسبيح والتحميد والسلام .

كما قال تعالى (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)، وَقَوْلِهِ (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا الْآيَةَ) وَقَوْلِهِ (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا). وَقَوْلِهِ (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وقال تعالى (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) ، (وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور).

وقال تعالى (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) .

كما وفقوا إلى القول الطيب في الدنيا :

كما قال ﷺ (أَحَبُّ الكَلامِ إلى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحانَ اللهِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ، ولا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، واللَّهُ أَكْبَرُ، لا يَضُرُّكَ بأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ). رواه مسلم

وقالﷺ (لأَنْ أَقُولَ :سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عليه الشَّمْسُ) . رواه مسلم

وقال ﷺ (كَلِمَتانِ خَفِيفَتانِ علَى اللِّسانِ، ثَقِيلَتانِ في المِيزانِ ، حَبِيبَتانِ إلى الرَّحْمَنِ: سُبْحانَ اللَّهِ العَظِيمِ ، سُبْحانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ). رواه البخاري

(**وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ**) كما هدوا إلى دينه القويم وصراطه المستقيم الموصل إليه وإلى السعادة في الدنيا والآخرة .

(وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) .

قيل : المرادُ أنَّهم هُدوا في الدُّنيا إلى الإسلامِ.

واختاره : ابنُ جَرير، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبيُّ، والخازن، وابن عاشور.

وقيل : وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ أي: إذا صاروا إلى الآخرةِ، وهُدوا إلى صراطِ الجنَّةِ، وطريقِها، فهو صراطُ الله عزَّ وجلَّ، يسلكُه المؤمنونَ إلى الجنَّةِ، ويعدلُ عنه الكافرونَ والمنافقونَ إلى طريقِ النارِ .

قال ابن عاشور : والحميد من أسماء الله تعالى ، أي المحمود كثيراً .

الفوائد :

١. فضل الإيمان والعمل الصالح وأنه سبب لدخول الجنة .

٢. أهمية العمل الصالح .

٣. أن العمل لا يقبل إلا إذا كان صالحاً .

٤. يجب الاهتمام أن يكون العمل صالحاً ، بأن يكون خالصاً لله متبعاً للشريعة .

٥. إثبات الجنة .

٦. من نعيم الجنة الأنهار .

٧. من نعيم الجنة أنهم يحلون أساور من ذهب ولؤلؤاً وفضة .

٨. أن لباس أهل الجنة أنعم لباس وهو الحرير .

٩. أنَّ الجَنَّة ليست دار تَكْليفٍ؛ أي: دارًا يُمْنَعُ منها العبدُ مِمَّا يتَنَعَّم به، بل يَتَنَعَّمُ بِكُلِّ ما شاء؛ لأنَّنا نَعْلَمُ جميعًا أنَّ تَحَلِّيَ الرِّجالِ في الدُّنْيا بالذَّهَب مَمْنوعٌ وحرامٌ، لَكِنَّه في الجَنَّة مباحٌ وممنوح، وليس بممنوعٍ؛ لأنَّ الجَنَّة لهم فيها ما يشاؤونَ بل أكثر مِمَّا يشاؤون ويريدونَ . (ابن عثيمين)

١٠. أن حرير الجَنَّة ليس كحريرِ الدُّنْيا الذي تُفْرِزُه أو تَصْنَعه دودة القَزِّ؛ فهو قابِلٌ لِكُلِّ آفَةٍ، بل حريرُ الآخِرَة حريرٌ لا يُماثِلُه شَيْءٌ من حريرِ الدُّنْيا أبدًا .

١١. أن الله وفقهم وهداهم إلى الطيب من القول في الدنيا والآخرة .

١٢. فضل الكلم الطيب .

١٣. أن الهداية بيد الله .

١٤. يجب طلب الهداية من الله .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)) .

[الحج : ٢٥] .

==========

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**) أَيْ: وَمِنْ صِفَتِهِمْ مَعَ كُفْرِهِمْ أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

(**وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**) أَيْ: وَيَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَنْ أَرَادَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ .

(**الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ**) العاكف : المقيم في الحرم ، يقال عكف فلان على الشيء ، إذا لازمه ولم يفارقه .

والباد : الطارئ من البادية ، وكذلك غيرها من أقطار الدنيا .

أي : جعلناه للناس على العموم، يصلون فيه، ويطوفون به، ويحترمونه ويستوي تحت سقفه من كان مقيما في جواره، وملازماً للتردد عليه، ومن كان زائراً له وطارئاً عليه من أهل البوادي أو من أهل البلاد الأخرى سوى مكة.

فهذا المسجد الحرام يتساوى فيه عباد الله، فلا يملكه أحد منهم، ولا يمتاز فيه أحد منهم، بل الكل فوق أرضه وتحت سقفه سواء.

(**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**) تهديد لكل من يحاول ارتكاب شيء نهى الله عنه في هذا المسجد الحرام.

أي : ومن يرد في هذا المسجد الحرام إلحادا، أي: ميلا وحيدة عن أحكام الشريعة وآدابها بسبب ظلمه وخروجه عن طاعتنا، نذقه من عذاب أليم لا يقادر قدره، ولا يكتنه كنهه .

قيل : بظلم العموم الظلم .

واختاره : ابنُ جَرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، وابن عاشور، والشنقيطيُّ .

قال ابنُ جَرير: أَوْلى الأقوال التي ذَكرناها في تأويلِ ذلك بالصوابِ: القولُ الذي ذَكرناه عن ابن مسعودٍ، وابن عبَّاس، من أنه معنيٌّ بالظلم في هذا الموضع كلُّ معصية لله؛ وذلك أنَّ الله عمَّ بقوله (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) ، ولم يُخصَّص به ظلمٌ دون ظُلمٍ في خبرٍ ولا عقْل؛ فهو على عُمومِه .

وقال الرازي : وثامنها : وهو قول المحققين : أن الإلحاد بظلم عام في كل المعاصي ، لأن كل ذلك صغر أم كبر يكون هناك أعظم منه في سائر البقاع حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه : لو أن رجلاً بعدن هم بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً.

وقال القرطبيُّ: هذا الإلحادُ والظلمُ يَجمع جميعَ المعاصي من الكُفر إلى الصغائر، فلِعِظَمِ حُرمة المكان توعَّدَ الله تعالى على نيَّة السيِّئة فيه، ومَن نوَى سيِّئة ولم يَعملْها لم يُحاسَبْ عليها إلا في مكَّة؛ هذا قولُ ابن مسعودٍ وجماعةٍ مِن الصحابة وغيرِهم.

وقال الشنقيطي : الذي يَظهَر في هذه المسألةِ أنَّ كلَّ مخالفةٍ بترك واجب، أو فِعل محرَّم تدخل في الظُّلْم المذكور، وأما الجائزات كعِتاب الرجُلِ امرأتَه، أو عبْدَه؛ فليس من الإلحاد، ولا مِن الظُّلم .

وقال أيضًا: (قال بعضُ أهلِ العلمِ: مَن هَمَّ أنْ يعملَ سَيِّئَةً فِي مَكَّةَ، أذاقَه اللَّهُ العذابَ الأليمَ بسَبَبِ هَمِّه بذلك وإنْ لم يفعَلْها، بخلافِ غيرِ الحَرَمِ المكِّيِّ مِنَ البقاعِ، فلا يعاقَبُ فيه بالهمِّ... فهذه الآيةُ الكريمَةُ مُخَصِّصةٌ لعمومِ قولِه ﷺ: «ومَنْ همَّ بِسَيِّئَةٍ فلم يَعْمَلْها كُتِبَتْ له حسنَةٌ...» الحديثَ، وعليه فهذا التَّخصيصُ لشدَّةِ التَّغليظِ في المخالَفَةِ في الحَرَمِ المكِّيِّ، ووجهُ هذا ظاهِرٌ... ويحتملُ أنْ يكونَ معنى الإرادةِ في قولِه: وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ العزمَ المصَمِّمُ على ارتكابِ الذَّنْبِ فيه، والعزمُ المصَمِّمُ على الذَّنْبِ ذنبٌ يُعاقَبُ عليه في جميعِ بِقَاعِ اللَّهِ؛ مَكَّةَ وغيرِها .

الفوائد :

١. شدة طغيان هؤلاء الكفار الذين يصدون عن المسجد الحرام مع كفرهم بالله تعالى .

٢. تهديد لكل من يهم ويعزم على فعل ظلم أو معصية في المسجد الحرام وأنه يعاقب على ذلك .

٣. أن هذا الأمر من خصائص الحرم .

٤. خصائص مكة :

أولاً: يجب السفر إليها (شد الرحال إليه فرض).

كما قال تعالى (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ).

ثانياً: قصْدُه مكفراً للذنوب.

قال ﷺ (من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) متفق عليه.

وقال ﷺ (نابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) متفق عليه.

ثالثاً: أن الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة.

كما قال ﷺ (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام) متفق عليه.

رابعاً: أن مكة أفضل البلاد.

كما روى الترمذي عن عبد الله بن عدي. أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته بالحَزْوَرَة من مكة يقول (والله إنكِ لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجتُ منك ما خرجت).

خامساً: أنها قبلة أهل الأرض كلهم.

قال تعالى (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ).

سادساً: أن المسجد الحرام أول مسجد وضع في الأرض.

كما في الصحيحين عن أبي ذر قال (سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض؟ فقال: المسجد الحرام ...) متفق عليه.

سابعاً: أنه يحرم استقبال القبلة واستدبارها حال قضاء الحاجة.

كما قال ﷺ (لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا) متفق عليه.

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)) .

[الحج : ٢٦] .

==========

(**وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ**) أي: واذكُرْ -يا مُحَمَّدُ- حينَ هَيَّأْنا لإبراهيمَ مَكانَ الكَعبةِ، وأنزَلْناه فيه، وعرَّفْناه بالموضِعِ الذي يَبني فيه الكَعبةَ، وقُلْنا له: لا تُشرِكْ باللهِ شَيئًا في عبادَتِه، وأخلِصْ أعمالَك كُلَّها للهِ وَحْدَه، وابنِ هذا البَيتَ على اسْمِ اللهِ وَحْدَه .

إبراهيم الخليل ، أبو الأنبياء ، وأفضل أولي العزم بعد محمد .

قال ابن كثير : (وَإِذْ بَوَّأْنَا ...) أي : أرشده إليه وسلّمه له وأذن له في بنائه .

واستدل به من قال : إن إبراهيم هو أول من بنى البيت العتيق ، وأنه لم يبنَ قبله .

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلُ قَالَ « الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ ». قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ « الْمَسْجِدُ الأَقْصَى ». قُلْتُ كَمْ بَيْنَهُمَا قَالَ « أَرْبَعُونَ سَنَةً وَأَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ فَصَلِّ فَهُوَ مَسْجِدٌ ». وَفِى حَدِيثِ أَبِي كَامِلٍ « ثُمَّ حَيْثُمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ فَصَلِّهْ فَإِنَّهُ مَسْجِدٌ) متفق عليه .

(**أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا**) أي : وعهدنا إليه وأمرناه ووصيناه بأن لا تشرك بي شيئاً ، أي : لا تشرك بي شيئاً من الشرك ، لا شركاً أكبر ، ولا أصغر ، ولا جلياً ، ولا خفياً .

والشرك : تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله .

قال ابن كثير : ابنه على اسمي وحدي .

(**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ**) تطهير البيت ينقسم إلى قسمين: تطهير معنوي، وتطهير حسي.

أما التطهير المعنوي: بأن يطهر من الشرك والمعاصي، وذلك لأن الشرك نجاسة.

والطهارة الحسية: أن يطهر من الأقذار، من البول والغائط والدم وما أشبه ذلك من الأشياء النجسة، فالواجب أن يطهر منها .

قال البقاعي : (وطهر بيتي) عن كل ما لا يليق به من قذر حسي ومعنوي من شرك ووثن وطواف عريان به ، كما كانت العرب تفعل. انتهى .

فهذا الحكم – أعني التطهير من النجاسة – ثابت للمسجد الحرام ولغيره من المساجد، ولهذا لما بال الأعرابي في مسجد النبي ﷺ أمر النبي ﷺ بذنوب من ماء فأهريق عليه.

فان قيل: لم يكن هناك بيت؛ فما معنى أمرهما بتطهيره؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أنه كانت هناك أصنام، فأمرا بإخراجها، قاله عكرمة.

والثاني: أن معناه: ابنياه مطهراً. (زاد المسير).

قال السعدي: وأضاف الباري البيتَ إليه لفوائد:

منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه بيت الله، فيبذلان جهدهما، ويستفرغان وسعهما في ذلك.

ومنها: أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه.

ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه. [تفسير السعدي: ٦٦]

قال ابن جرير: فمعنى الآية: وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين، والتطهير الذي أمرهما به في البيت؛ هو تطهيره من الأصنام، وعبادة الأوثان فيه، ومن الشرك، ثم أورد سؤالاً، فقال: فإن قيل: فهل قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه؟

وأجاب بوجهين:

أحدهما: أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عند زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما، قلت: وهذا الجواب مفرغ على أنه كان يعبد عنده أوثان قبل إبراهيم عليه السلام، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم ﷺ.

الثاني: أنه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له، فيبنياه مطهراً من الشرك والريب.

وملخص هذا الجواب: أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له للطائفين به والعاكفين عنده، المصلين إليه من الركع السجود.

- وقد وردت نصوص كثيرة تدل على فضل تطهير المساجد:

قال تعالى (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ).

وقال ﷺ للأعرابي الذي بال في المسجد (إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن) رواه مسلم.

وكانت امرأة سوداء تقم المسجد وتنظفه في عهد النبي ﷺ، فلما ماتت، فقدها النبي ﷺ، فسأل عنها فقالوا: ماتت، فقال (دلوني على قبرها، فصلى عليها) متفق عليه.

(**لِلطَّائِفِينَ**) الذين يطوفون بالكعبة.

قال في التسهيل: (لِلطَّائِفِينَ) هم الذين يطوفون بالكعبة، وقيل: الغرباء القادمون على مكة، والأول أظهر.

قال القرطبي عن القول الثاني: فيه بُعد.

لأن الأصل حمل الألفاظ الواردة في القرآن على المتبادر المشهور دون المعنى البعيد.

(**وَالْقَائِمِينَ**) جمع قائم ، أي : القائمين في الصلاة لقوله بعده (والركع السجود) .

قال ابن الجوزي : المراد ب "القائمين" قولان.

أحدهما : القائمون في الصلاة ، قاله عطاء ، والجمهور.

والثاني : المقيمون بمكة ، حكي عن قتادة.

(**وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**) أي المصلون عند الكعبة.

قال القرطبي: وخص الركوع والسجود بالذكر؛ لأنهما أقرب أحوال المصلي إلى الله تعالى.

وقال الشوكاني: وخص هذين الركنين بالذكر؛ لأنهما أشرف أركان الصلاة.

وقرن بين الطواف والصلاة ، لأن الطواف لا يصح إلا بالبيت الحرام ، والصلاة لا تصح إلا إليه ، وقدم الطواف على الصلاة لاختصاصه بالبيت .

الفوائد :

تعلية شأن إبراهيم، حيث أمرنا الله أن نتخذ من مقامه مصلى، وهذا من جملة ما يترتب على الإمامة التي قال الله تعالى فيها: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً).

وجوب تطهير البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود.

فضيلة الطواف، لقوله (طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ) ولا شك أن الطواف من الأعمال الجليلة الفاضلة، ولهذا كان ركناً من أركان الحج والعمرة.

الإشارة إلى أن المشروع للطائف أن يكون متطهراً، لأنه إذا أمر بتطهير البيت من أجله فتطهيره بنفسه وتطهير ملابسه من الثياب من باب أولى.

قوله (أن طهرا) قال القرطبي: دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى، فيكون حكمها حكمه بالتطهير والنظافة، وإنما خص الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها، أو لكونها أعظم حرمة، والأول أظهر ، وفي التنزيل (في بيوت أذن الله أن ترفع).

(وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٧) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)) .

[الحج : ٢٧-٢٩] .

==========

(وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً) أي: وأَعْلِمْ -يا إبراهيمُ - النَّاسَ بوُجوبِ الحَجِّ عليهم، ونادِ فيهم أنْ حُجُّوا أيُّها النَّاسُ بيتَ اللهِ؛ يأتُوا إليك مُشاةً على أرجُلِهم، مُلَبِّينَ نداءَك، حاجِّينَ بَيتَ اللهِ الحرام .

قال الشوكاني : قالَ الْوَاحِدِيُّ: قَالَ جَمَاعَةُ الْمُفَسِّرِينَ: لَمَّا فَرَغَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بِنَاءِ البيت جاء جِبْرِيلُ فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، فقال: يا ربّ وما يُبَلِّغُ صَوْتِي؟ فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: أَذِّنْ وَعَلَيَّ الْبَلَاغُ، فَعَلَا الْمَقَامَ فَأَشْرَفَ بِهِ حَتَّى صَارَ كَأَعْلَى الْجِبَالِ، فَأَدْخَلَ أُصْبُعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ، وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَشَرْقًا وَغَرْبًا، وَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ إِلَى الْبَيْتِ فَأَجِيبُوا رَبَّكُمْ، فَأَجَابَهُ مَنْ كَانَ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ.

قال البقاعي : (وأذن في الناس) أي أعلمهم وناد فيهم ، (رجالاً) أي مشاة على أرجلهم .

قال الرازي : وفي المأمور قولان :

أحدهما : وعليه أكثر المفسرين أنه هو إبراهيم عليه السلام قالوا لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قال سبحانه (وَأَذِّن فِي الناس بالحج) قال يا رب وما يبلغ صوتي ؟ قال عليك الأذان وعلى البلاغ.

القول الثاني : أن المأمور بقوله (وَأَذِّن) هو محمد ﷺ وهو قول الحس .

وقال ابن جزي : قوله تعالى (وأذن ...) خطاب لإبراهيم ، وقيل : لسيدنا محمد ﷺ ، والأول هو الصحيح .

وقال القرطبي : إنما قال : "يأتوك" وإن كانوا يأتون الكعبة لأن المنادَى إبراهيم ، فمن أتى الكعبة حاجاً فكأنما أتى إبراهيم ؛ لأنه أجاب نداءه ، وفيه تشريف إبراهيم.

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) أو ركباناً على جمل هزيل قد أتعبه وأنهكه بعد المسافة .

قال البقاعي : (وعلى كل ضامر) أي هزيل من طول السير من الإبل لبعد الشقة وعظم المشقة.

قال الرازي : والمعنى أن الناقة صارت ضامرة لطول سفرها.

وقال القرطبي : والضامر : البعير المهزول الذي أتعبه السفر .

(**يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**) أي : تأتي الإبل الضامرة من كل طريق بعيد .

وكلمة عميق تستعمل في البعد من الناحية الأفقية، وكذلك البعد من ناحية العمق، وهذا أكثر ما يستعمل به هذا اللفظ، يقال: بئر عميقة، حفرة عميقة، في العمق، ويقال ذلك في البعد، فيقال: ناحية عميقة، يعني بعيدة، وهكذا طريق عميق أي طويل.

(فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم) .

فالمسلمون في جميع أقطار الأرض على اختلاف لغاتهم ومشاربهم كلهم يحنون إلى البيت العتيق ، ويحجونه ويزورونه .

(**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ**) قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ قَالَ: مَنَافِعُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا مَنَافِعُ الْآخِرَةِ فَرِضْوَانُ الله تعالى، وَأَمَّا مَنَافِعُ الدُّنْيَا فَمَا يُصِيبُونَ مِنْ مَنَافِعِ البدن، والذبائح وَالتِّجَارَاتِ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: إِنَّهَا مَنَافِعُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

كقَوْلِهِ (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ) . (ابن كثير) .

قال القرطبي : لا خلاف في أن المراد بقوله (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ) التجارة.

قال الرازي : واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا، وهي أن يتجروا في أيام الحج ، وبعضهم حملها على منافع الآخرة، وهي العفو والمغفرة عن محمد الباقر عليه السلام ، وبعضهم حملها على الأمرين جميعاً ، وهو الأولى.

وقال ابن الجوزي : (منافع لهم) وفيها ثلاثة أقوال.

أحدها : التجارة ، قاله ابن عباس ، والسدي.

والثاني : منافع الآخرة ، قاله سعيد بن المسيب ، والزجاج في آخرين.

والثالث : منافع الدارين جميعاً ، قاله مجاهد.

وهو أصح ، لأنه لا يكون القصد للتجارة خاصة ، وإنما الأصل قصدُ الحج ، والتجارة تَبَع.

الطواف ، والسعي ، مغفرة الذنوب .

كما قال ﷺ (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) .

وقال ﷺ (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه) .

(**وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ**) أي : يتقربوا إلى الله بنحر وذبح الهدي والأضاحي ويذكروا اسم الله عليها عند النحر والذبح بقولهم : باسم الله .

(**فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ**) هي المراد بالأيام المعلومات هي العشر .

قال الرازي : أكثر العلماء صاروا إلى أن الأيام المعلومات عشر ذي الحجة .

ونسبه الثعلبي والبغوي والخازن إلى أكثر المفسرين.

وقال ابنُ رجب: جمهورُ العُلَماءِ على أنَّ هذه الأيامَ المعلوماتِ هي عَشرُ ذي الحجَّةِ؛ منهم: ابنُ عُمر، وابنُ عبَّاسٍ، والحَسَنُ، وعَطاءٌ، ومُجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، والنَّخَعيُّ، وهو قولُ أبي حنيفةَ والشَّافعيِّ، وأحمدَ في المشهورِ عنه .

(**عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ**) أي : على الذي أعطاهم من بهيمة الأنعام ، وسميت بهيمة لما في نطقها من الإبهام .

(**فَكُلُوا مِنْهَا**) أمر إباحة واستحباب .

قال ابن كثير : الذي عليه الأكثرونَ أنَّه مِن باب الرُّخصةِ أو الاستِحبابِ .

قال البغوي : فَكُلُوا مِنْهَا أمرُ إباحةٍ وليس بواجِبٍ، وإنَّما قال ذلك؛ لأنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كانوا لا يأكُلونَ مِن لُحومِ هداياهم شيئًا .

(**وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ**) البائس : الذي أصابه البؤس ، وهو الشدة .

والفقير : فهو الذي لا يجد كفايته من حاجاته الضرورية من المأكل والملبس والمشرب، وهنا يدخل فيه المسكين؛ لأن الفقير ذكر وحده، وكما هو معلوم إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فالمسكين والفقير هنا بمعنى واحد، لكن البائس أشد، فالفقير لا يصل به الحد إلى البؤس، ويجد شيئاً، يجد بلغة، لكن لا يجد الكفاية، أما البائس فوصل به الأمر إلى حد الضرر.

(**ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ**) المراد ههنا قص الشارب والأظفار ونتف الإبط وحلق العانة .

قال النيسابوري: أجمع أهلُ التفسيرِ على أنَّ المرادَ هاهنا: إزالةُ الأوساخِ والزوائِدِ؛ كقَصِّ الشارِبِ والأظفارِ، ونتْفِ الإبْطِ، وحَلقِ العانة، فتقديرُ الآية: ثمَّ لْيَقضُوا إزالةَ تَفَثِهم .

قال ابن الجوزي (ثم ليقضوا تفثهم) حلق الرأس، وأخذ الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وقص الأظفار، ورمي الجمار، والوقوف بعرفة، رواه عطاء عن ابن عباس.

لأن التفث : الوسخ ، والقذارة : من طول الشعر والأظفار والشعث.

وقضاؤه : نقضه ، وإذهابه.

والحاج مغبَّر شعث لم يدَّهن، ولم يستحدَّ، فإذا قضى نسكه، وخرج من إحرامه بالحلق، والقلم، وقص الأظفار، ولبس الثياب، ونحو ذلك، فهذا قضاء تفثه. (زاد المسير)

وقال الشوكاني : (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) الْمُرَادُ بِالْقَضَاءِ هُنَا هُوَ التَّأْدِيَةُ، أَيْ: لِيُؤَدُّوا إزَالَةَ وَسَخِهِمْ، لِأَنَّ التَّفَثَ هُوَ الْوَسَخُ وَالْقَذَارَةُ مِنْ طُولِ الشَّعْرِ وَالْأَظْفَارِ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ كَمَا حَكَاهُ النَّيْسَابُورِيُّ عَلَى هَذَا .

(**وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ**) أي: ولْيُوفِ الحُجَّاجُ بما أوجَبوه على أنفُسِهم في الحَجّ .

قال البغويُّ: قَولُه تعالى (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) قال مجاهِدٌ: أراد نَذْرَ الحَجِّ والهَدْيِ، وما يَنذِرُ الإنسانُ مِن شَيءٍ يكونُ في الحجّ، أي: لِيُتمُّوها بقَضائِها. وقيل: المرادُ منه الوَفاءُ بما نذَر، على ظاهِرِه. وقيل: أراد به الخُروجَ عمَّا وجَب عليه، نذَرَ أو لم يَنذِرْ. والعرَبُ تقولُ لكُلِّ مَن خرجَ عن الواجِبِ عليه: وَفَى بنَذرِه .

(**وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ**) وهو طواف الإفاضة .

قال ابن جزي : المراد هنا طوافُ الإفاضةِ، عند جميعِ المفَسِّرينَ .

وسمي البيت العتيق لوجوه :

أحدها : العتيق القديم لأنه أول بيت وضع للناس عن الحسن.

كما قال تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) .

وثانيها : لأنه أعتق من الجبابرة فكم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى .

وثالثها : لم يملك قط عن ابن عيينة .

ورابعها : أعتق من الغرق .

الفوائد :

١. وجوب الحج .

٢. فضل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام .

٣. لا يوجد مسلم إلا وهو يحن للبيت الحرام .

٤. يجب الحج على المستطيع ولو ماشياً .

٥. يجوز الحج رجالاً وركباناً .

قال القرطبي : لا خلاف في جواز الركوب والمشي ، واختلفوا في الأفضل منهما ؛ فذهب مالك والشافعي في آخرين إلى أن الركوب أفضل ، اقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولكثرة النفقة ولتعظيم شعائر الحج بأهبة الركوب.

٦. أن من حكمة شرعية الحج شهود المنافع الدنيوية والأخروية .

٧. مشروعية الهدي في هذه الأيام المعلومات .

٨. مشروعية ذكر الله عند ذبح الهدي والأضاحي .

٩. يُشتَرَطُ في الأُضحِيَّةِ أنْ تكونَ مِن بهيمةِ الأنعامِ –وهي: الإبلُ والبَقَرُ والغَنَمُ– فلو ضَحَّى الإنسانُ بحيوانٍ آخَرَ أغلى منها، لم يُجْزِه، وكذلك الهديُ الذي نصَّ الشرعُ على كونِه مِن بهيمةِ الأنعامِ .

١٠. ذكر الله تعالى سبب لكل خير .

١١. أن الرزق كله بيد الله .

١٢. من شكر النعم الإكثار من ذكر الله تعالى .

١٣. استحباب الأكل من الهدي والأضحية .

١٤. استحباب إطعام البائس الفقير .

١٥. وجوب إتمام المناسك .

١٦. وجوب الوفاء بالنذر .

١٧. أن الوفاء بالنذر عبادة .

١٨. وجوب طواف الإفاضة وهو ركن من أركان الحج .

(ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)) .

[الحج : ٣٠-٣٣] .

==========

(**ذَلِكَ**) أي: ذلك الذي أمَرَ اللهُ به مِن قَضاءِ التَّفَثِ والوَفاءِ بالنُّذورِ والطَّوافِ بالبَيتِ العَتيقِ .

(**وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ**) أَيْ : وَمَنْ يَجْتَنِبُ مَعَاصِيَهُ، وَمَحَارِمَهُ وَيَكُونُ ارْتِكَابُهَا عَظِيمًا فِي نَفْسِهِ .

قال الرازي : والحرمة ما لا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها يحتمل أن يكون عاماً في جميع تكاليفه ، ويحتمل أن يكون خاصاً فيما يتعلق بالحج .

وقال الشوكاني : وَالْحُرُمَاتُ: جَمْعُ حُرْمَةٍ. قَالَ الزَّجَّاجُ: الْحُرْمَةُ مَا وَجَبَ الْقِيَامُ بِهِ وَحُرِّمَ التَّفْرِيطُ فِيهِ، وَهِيَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا نُهِيَ عَنْهَا وَمُنِعَ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا. وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ عُمُومُ كُلِّ حُرْمَةٍ فِي الْحَجِّ وَغَيْرِهِ كَمَا يفيده اللفظ وإن كانا السَّبَبُ خَاصًّا، وَتَعْظِيمُهَا تَرْكُ مُلَابَسَتِهَا

(**فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ**) أَيْ : فَلَهُ عَلَى ذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَثَوَابٌ جَزِيلٌ، فَكَمَا عَلَى فِعْلِ الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل، كذلك على تلك المحرمات واجتناب الْمَحْظُورَاتِ .

يثيبه الله الثواب الجزيل في الدنيا والآخرة .

ولذلك قال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله : ... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله) .

(**وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ**) أي: وأَحَلَّ اللهُ لكم -أيُّها النَّاسُ- الإبِلَ والبَقَرَ والغَنَمَ أن تأكُلوها إذا ذكَّيتُموها .

(**إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ**) من تحريم ،كالمَيْتةِ، والدَّمِ، ولَحمِ الخِنزيرِ، وما أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ به .

كما قال تعالى (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

قال القرطبي: (إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) أي: في الكتابِ مِن المحرَّماتِ، وهي الميتةُ والموقُوذَةُ وأخَواتُها، ولهذا اتِّصالٌ بأمرِ الحجِّ؛ فإنَّ في الحجِّ الذبحَ، فبيَّن ما يحِلُّ ذبحُه، وأكلُ لحمِه. وقيل: إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ .

وقال الشنقيطي: (لم يُبَيِّنْ هنا هذا الذي يُتلَى عليهم المستثنى مِن حِلِّيَّةِ الأنعامِ، ولكِنَّه بيَّنَه بقَولِه تعالى في سورة «الأنعام» (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) .

وهذا الذي ذكَرْنا هو الصَّوابُ، أمَّا ما قاله جماعاتٌ مِن أهل التفسيرِ مِن أنَّ الآيةَ التي بيَّنَت الإجمالَ في قَولِه تعالى هنا: إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ أنَّها قَولُه تعالى في المائدة (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ) فهو غَلَطٌ؛ لأنَّ «المائدةَ» من آخِرِ ما نزَلَ مِن القرآنِ، وآيةُ «الحجِّ» هذه نازلةٌ قبل نزولِ «المائدةِ» بكثيرٍ؛ فلا يَصِحُّ أن يُحالَ البَيانُ عليها في قَولِه تعالى: إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ، بل المبَيِّنُ لذلك الإجمالِ آيةُ الأنعامِ التي ذكَرْنا؛ لأنَّها نازِلةٌ بمكَّةَ، فيَصِحُّ أن تكونَ مُبَيِّنةً لآيةِ الحَجِّ المذكورةِ، كما نبَّهَ عليه غيرُ واحدٍ .

(**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ**) (من) هاهنا لبيان الْجِنْسِ، أَيِ اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الَّذِي هُوَ الْأَوْثَانُ أي : عبادتها .

أي : ابتعدوا كل البعد عن عبادة الأوثان وعما يقرب إليها .

والأمر بالاجتناب أبلغ في التحريم من الأمر بالترك .

فمن تعظيم الله اجتناب الأوثان .

والأوثان : جمع وثن وهي الأصنام والأنداد والمعبودات من دون الله .

قال الشنقيطي : وَيَدْخُلُ فِي حُكْمِهَا ، وَمَعْنَاهَا عِبَادَةُ كُلِّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ ، وَهَذَا الْأَمْرُ بِاجْتِنَابِ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ الْمَذْكُورِ هُنَا ، جَاءَ مُبَيَّنًا فِي آيَاتٍ :

كَقَوْلِهِ (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

وَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ ذَلِكَ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ إِيمَانِهِ بِاللَّهِ فِي قَوْلِهِ (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) .

وَأَثْنَى اللَّهُ عَلَى مُجْتَنِبِي عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ الْمُنِيبِينَ لِلَّهِ ، وَبَيَّنَ أَنَّ لَهُمُ الْبُشْرَى ، وَهِيَ مَا يَسُرُّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى) .

وَقَدْ سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ أَنْ يَرْزُقَهُ اجْتِنَابَ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) وَالْأَصْنَامُ تَدْخُلُ فِي الطَّاغُوتِ دُخُولًا أَوَّلِيًا .

وقال القرطبي: وسمَّاها رِجسًا؛ لأنَّها سببُ الرِّجزِ، وهو العذابُ. وقيل: وصفَها بالرجسِ، والرجسُ النجسُ؛ فهي نجسةٌ حُكمًا، وليست النجاسةُ وصفًا ذاتيًّا للأعيانِ، وإنما هي وصفٌ شرعيٌّ مِن أحكامِ الإيمانِ، فلا تُزالُ إلا بالإيمانِ، كما لا تجوزُ الطهارةُ إلا بالماءِ .

وقيل: سمَّاها بذلك؛ لأنَّ وُجوبَ تجنُّبِها أوكَدُ مِن وُجوبِ تجنُّبِ الرِّجسِ، ولأنَّ عِبادَتَها أعظَمُ مِن التَّلوُّثِ بالنَّجاساتِ. أو وصفَها بذلك؛ استحقارًا واستِخفافًا. يُنظر: ((تفسير الراز

(**وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ**) أي : وابتعدوا كل البعد عن قول الزول .

والزور : الانحراف عن الحق والميل والعدول عن الصواب ، وليس هناك أشد انحرافاً وميلاً وبعداً عن الحق والصواب ممن زعم أن لله شريكاً .

فالمراد بقول الزور : قيل شهادة الزور ، وقيل : الكذب ، وقيل : الشرك ، وقيل : أنه يشمل كل قول باطل .

وهذا اختيار ابن جرير ، والشوكاني ، والسعدي ، والشنقيطي .

قال الرازي : وإنما جمع الشرك وقول الزور في سلك واحد لأن الشرك من باب الزور ، لأن المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة فكأنه قال فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور ، واجتنبوا قول الزور كله ، ولا تقربوا منه شيئاً لتماديه في القبح والسماجة ، وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان وسمى الأوثان رجساً لا للنجاسة ، لكن لأن وجوب تجنبها أوكد من وجوب تجنب الرجس ولأن عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات.

وفي قرن الأمر باجتناب قول الزور بالأمر باجتناب الأوثان دليل على عظم شهادة الزور .

عن أبي بكرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ قُلْنَا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ: لَا يَسْكُتُ) .

«وكانت من أكبر الكبائر :

لأنها يتوصل بها إلى إتلاف النفوس والأموال، وتحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، فلا شيء في الكبائر أعظم ضرراً ولا أكثر فساداً منها بعد الشرك.

فشهادة الزور هي: أن يشهد الإنسان أمام حاكم أو نحوه بغير علم، ويتحرى الباطل ويكذب، وهذه الشهادة يترتب عليها:

ضياع الحقوق.

وطمس معالم العدل.

وإعانة الظالم.

وإعطاء المال أو الحقوق لغير مستحقيها.

وتقويض أركان الأمن؛ إذ يجرؤ الناس على ارتكاب الجرائم، واقتراف الآثام؛ اتِّكالاً على وجود أولئك الفسقة العصاة الآثمين المجرمين.

قال الإمام الذهبي: إن شاهد الزور قد ارتكب عظائم:

أحدها: الكذب والافتراء.

ثانيها: أنه ظلَمَ الذي شهد عليه حتى أخذ بشهادته مالَه وعرضه، وروحه (أحيانًا).

ثالثها: أنه ظلم الذي شهد له بأن ساق إليه المال الحرام، فأخذه بشهادته، فوجبت له النار؛ مصداقًا لقوله ﷺ: مَنْ قضيت له من مال أخيه بغير حق، فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له قطعة من النار.

رابعها: أنه أباح ما حرَّم الله تعالى وعصمه من المال والدم والعرض" اهـ.

قال بعض العلماء: وإن في شهادة الزور ثلاثة آثام:

الإثم الأول: كونها معصية، وإثمًا من أكبر الآثام والكبائر، فبها يظلم الإنسان نفسه لكذبه وافترائه.

الإثم الثاني: إعانة الظالم على ظلمه؛ حيث يشهد له ويساعده على أكل أموال الناس بالباطل، وإباحة ما حُرِّمَ عليه من حقوقهم.

الإثم الثالث: خذلان المظلوم؛ حيث يؤخذ بهذه الشهادة ماله، وعرضه، ودمه، فيبني القاضي عليه حكمه، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال (إنما أنا بشر مثلكم، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له في مال أخيه بغير حق فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له قطعة من نار).

قال الحافظ: قَوْلُهُ (وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا) يُشْعِرُ بِأَنَّهُ اهْتَمَّ بِذَلِكَ حَتَّى جَلَسَ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُتَّكِئًا وَيُفِيدُ ذَلِكَ تَأْكِيدَ تَحْرِيمِهِ وَعِظَمَ قُبْحِهِ.

وَسَبَبُ الِاهْتِمَامِ بِذَلِكَ كَوْنُ قَوْلِ الزُّورِ أَوْ شَهَادَةِ الزُّورِ أَسْهَلَ وُقُوعًا عَلَى النَّاسِ وَالتَّهَاوُنِ بِهَا أَكْثَرَ فَإِنَّ الْإِشْرَاكَ يَنْبُو عَنْهُ قَلْبُ الْمُسْلِمِ وَالْعُقُوقَ يَصْرِفُ عَنْهُ الطَّبْعُ وَأَمَّا الزُّورُ فَالْحَوَامِلُ عَلَيْهِ كَثِيرَةٌ كَالْعَدَاوَةِ وَالْحَسَدِ وَغَيْرِهِمَا فَاحْتِيجَ إِلَى الِاهْتِمَامِ بِتَعْظِيمِهِ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِعِظَمِهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا ذُكِرَ مَعَهَا مِنَ الْإِشْرَاكِ قَطْعًا بَلْ لِكَوْنِ مَفْسَدَةِ الزُّورِ مُتَعَدِّيَةً إِلَى غَيْرِ الشَّاهِدِ بِخِلَافِ الشِّرْكِ فَإِنَّ مَفْسَدَتَهُ قَاصِرَةٌ غَالِباً. (الفتح).

وقوله (فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ) أَيْ: شَفَقَةً عَلَيْهِ وَكَرَاهِيَةً لِمَا يُزْعِجُهُ وَفِيهِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَدَبِ مَعَهُ ﷺ وَالْمَحَبَّةِ لَهُ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْه.

وقال النووي: وَأَمَّا قَوْله: (فَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ) فَجُلُوسه ﷺ لِاهْتِمَامِهِ بِهَذَا الْأَمْر، وَهُوَ يُفِيد تَأْكِيد تَحْرِيمه، وَعِظَم قُبْحه.

وَأَمَّا قَوْلهمْ (لَيْتَهُ سَكَتَ) فَإِنَّمَا قَالُوهُ وَتَمَنَّوْهُ شَفَقَة عَلَى رَسُول الله ﷺ وَكَرَاهَة لِمَا يُزْعِجهُ وَيُغْضِبهُ.

وجاء في (سبل السلام) وَإِنَّمَا اهْتَمَّ ﷺ بِإِخْبَارِهِمْ عَنْ شَهَادَةِ الزُّورِ، وَجَلَسَ، وَأَتَى بِحَرْفِ التَّنْبِيهِ، وَكَرَّرَ الْإِخْبَارَ؛ لِكَوْنِ قَوْلِ الزُّورِ، وَشَهَادَةِ الزُّورِ: أَسْهَلَ عَلَى اللِّسَانِ، وَالتَّهَاوُنِ بِهَا أَكْثَرَ؛ وَلِأَنَّ الْحَوَامِلَ عَلَيْهِ (قول الزور) كَثِيرَةٌ مِنْ الْعَدَاوَةِ وَالْحَسَدِ وَغَيْرِهِمَا، فَاحْتِيجَ إلَى الِاهْتِمَامِ بِشَأْنِهِ، بِخِلَافِ الْإِشْرَاكِ، فَإِنَّهُ يَنْبُو عَنْهُ قَلْبُ الْمُسْلِمِ؛ وَلِأَنَّهُ لَا تَتَعَدَّى مَفْسَدَتُهُ إلَى غَيْرِ الْمُشْرِكِ، بِخِلَافِ قَوْلِ الزُّورِ، فَإِنَّهُ يَتَعَدَّى إلَى مَنْ قِيلَ فِيه. (سبل السلام)»

وقال تعالى (والَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: "وقيل المراد بقوله تعالى (لَا يَشْهَدُونَ الزُّور) أي: شهادة الزور، وهي الكذب مُتَعَمِّدًا على غيره"؛»

(**حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ**) أيْ : مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ مُنْحَرِفِينَ عَنِ الْبَاطِلِ قَصْدًا إِلَى الْحَقِّ .

ثُمَّ ضَرَبَ لِلْمُشْرِكِ مَثَلًا فِي ضَلَالِهِ وَهَلَاكِهِ وَبُعْدِهِ عَنِ الْهُدَى، فَقال :

(**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ**) أي: ومَن يُشرِكْ باللهِ شَيئًا في عبادتِه، .

(**فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء**) أي : سقط منها .

(**فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ**) أي : تقطعه الطيور في الهواء .

(**أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**) أي : أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة .

قال السعدي : ومن ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبليات، فإما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودنياه.

قال الشنقيطي: ومَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ هَلَاكِ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَأَنَّهُ لَا يُرْجَى لَهُ خَلَاصٌ، جَاءَ مُوَضَّحًا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ. كَقَوْلِهِ (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ) .

وَكَقَوْلِهِ (قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) .

وَقَوْلِهِ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) .

وَقَدْ دَلَّتْ آيَاتٌ أُخَرُ عَلَى أَنَّ مَحَلَّ هَذَا الْهَلَاكِ الَّذِي لَا خَلَاصَ مِنْهُ بِحَالِ الْوَاقِعِ بِمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ ، إِنَّمَا هُوَ فِي حَقِّ مَنْ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ الْإِشْرَاكِ ، وَلَمْ يَتُبْ مِنْهُ قَبْلَ حُضُورِ الْمَوْتِ ، أَمَّا مَنْ تَابَ مِنْ شِرْكِهِ قَبْلَ حُضُورِ الْمَوْتِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ ; لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ .

وَالْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى ذَلِكَ مُتَعَدِّدَةٌ كَقَوْلِهِ (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) .

وَقَوْلِهِ (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ إِلَى قَوْلِهِ : إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) .

وَقَوْلِهِ فِي الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ (أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيم) .

(**ذَلِكَ**) أي : هذا .

(**وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ**) أي : أوامره .

جمع شعيرة : وهي المعالم الظاهرة للدين مما أمر الله بتعظيمه وإجلاله واحترامه من الهدي والأضحية والبدن وغيرها .

وخص بعض العلماء (شعائر الله) هنا بالهدي، ولا شك أنه أعظم الشعائر ، ومن أول ما يدخل في عموم الآية لقوله تعالى (لكم فيها منافع) .

وتعظيم الهدي والأضاحي باستحسانها واستسمانها وتمام صفاتها وأوصافها .

عن أنس قال : ضحى النبي ﷺ بكبشين أملحين أقرنين .

وفي حديث أبي سعيد قال (أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن فحيل يأكل في سواد وينظر في سواد ويمشي في سواد) .

وفي حديث أبي رافع (أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين خصيين) .

(**فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**) فإن تعظيمها من أفعال المتقين .

ومن ذلك تعظيم الهدايا والبُدن .

قال القرطبي : أضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى في القلب وفي الحديث : التقوى ههنا وأشار إلى صدره .

فتعظيم شعائر الله برهان ودليل على تقوى الله .

وفي هذت حث عظيم في تعظيم شعائر الله واحترامها ، والقيام بها كما شرعها الله .

ومدار الأعمال كلها على القلب كما قال ﷺ (أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ. أَلاَ وَهِيَ الْقَلْب).

وهذا الحديث دليل على أنه يجب على الإنسان أن يهتم بقلبه، لأن مدار الصلاح والفساد عليه، فإذا صلح صلح سائر الجسد وإذا فسد فسد سائر الجسد.

قال ابن حجر: وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب، والحث على صلاحه، والإشارة إلى أن لطيب الكسب أثراً فيه.

– وصلاح القلب يكون باستقامة على طاعة الله.

– قال ابن القيم: استقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب، فإذا تعارض حب الله وحب غيره، سبق حب الله حب ما سواه، وما أسهل هذا بالدعوى، وما أصعبه بالفعل.

فعلامة تعظيم الأوامر: رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحسينها وفعلها في أوقاتها والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها.

وعلامات تعظيم المناهي: الحرص على التباعد من مظانها وأسبابها وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرب منها.

وأن يغضب لله عز وجل إذا انتهكت محارمه، وأن يجد في قلبه حزناً وكسرة إذا عصى الله في أرضه.

وأن لا يسترسل مع الرخصة إلى حد يكون صاحبه جافياً غير مستقيم على المنهج الوسط. [الوابل الصيب].

– ويجب دعاء الله بإصلاحه وتثبيته.

فقد كان ﷺ يدعو: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك.

وكان قسم النبي ﷺ: لا، ومقلب القلوب.

– وتتفاضل الأعمال عند الله بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها.

– وينبغي التحذير من التساهل في أمر القلب.

قال ﷺ: (إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء) رواه مسلم.

– ولا ينفع يوم القيامة إلا القلب السليم.

قال تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم).

القلب السليم: هو السالم من الشرك والبدعة والآفات والمكروهات، وليس فيه إلا محبة الله وخشيته.

– وينبغي الدعاء بسلامة القلب.

فقد كان ﷺ يقول (اللهم إني أسألك قلباً سليماً ..) رواه أحمد.

(**لَكُمْ فِيهَا**) أي : لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها .

(**إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**) إلى وقت نحرها .

وقد اختلف العلماء في المراد بقوله تعالى (إلى أجل مسمى) على قولين :

القول الأول : أن لكم أن تنتفعوا بهذه البهائم إلى أن تسموها ضحية وهدياً فإذا فعلتم ذلك فليس لكم أن تنتفعوا بها .

وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والضحاك .

القول الثاني : (لكم فيها) أي في البدن (منافع) مع تسميتها هدياً بأن تركبوها إن احتجتم إليها وأن تشربوا ألبانها إذا اضطررتم إليها (إلى أجل مسمى) يعني إلى أن تنحروها .

واختار هذا القول : الواحدي ، والرازي ، والنسفي ، وأبو السعود ، والشوكاني ، والآلوسي ، والسعدي .

قال الرازي : وهذا القول أقوى .

(**ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ**) أي : حيث يحل نحرها .

قال ابن الجوزي : قوله تعالى : (ثُمَّ مَحِلُّها) أي : حيث يَحِلُّ نحرها (إلى البيت) يعني : عند البيت ، والمراد به : الحرم كلُّه ، لأنا نعلم أنها لا تذبح عند البيت ، ولا في المسجد ، هذا على القول الاول ؛ وعلى الثاني ، يكون المعنى : ثم مَحِلّ الناس من إحرامهم إلى البيت ، وهو أن يطوفوا به بعد قضاء المناسك.

الفوائد :

١. الحث على تعظيم حرمات الله ، والبعد عما حرمه الله من محظورات الإحرام .

٢. الأجر الكبير لمن عظم حرمات الله .

٣. حل بهيمة الأنعام .

٤. مما حرمه الله علينا : الميتة والدم ولحم الخنزير .

٥. وجوب اجتناب الشرك .

٦. خطر الشرك .

٧. تحريم عبادة الأوثان وكل معبود من دون الله .

٨. وجوب اجتناب الزور بكل أشكاله .

٩. خطر شهادة الزور .

١٠. وجوب توحيد الله وإخلاصه .

١١. سوء عاقبة المشرك .

١٢. التنفير من الشرك .

١٣. فضل تعظيم شعائر الله .

١٤. من أعظم علامة التقوى تعظيم شعائر الله .

١٥. أن مدار صلاح الأعمال وفسادها على القلب .

(لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)) .

[الحج : ٣٤-٣٥] .

==========

(لِكُلِّ أُمَّةٍ) من الأمم السالفة .

(جَعَلْنَا مَنسَكًا) يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ ذَبْحُ الْمَنَاسِكِ وَإِرَاقَةُ الدِّمَاءِ عَلَى اسْمِ اللَّهِ مَشْرُوعًا فِي جميع الملل.

وفي هذه الجملة الكريمة وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً، تحريك لنفوسهم نحو الإقدام على إراقة الدم تقربا إلى الله، لأن هذه الذبائح ليست من شعائر هذه الأمة وحدها، وإنما هي من شعائرها ومن شعائر الأمم التي سبقتها.

قال ابن الجوزي : والمراد من الآية : أن الذبائح ليست من خصائص هذه الأمة ، وأن التسمية عليها كانت مشروعة قبل هذه الأمة.

(لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ) أي : أمرناهم عند الذبح أن يذكروا اسم الله وأن يذبحوا لوجه الله .

قال الرازي : فالمعنى شرعنا لكل أمة من الأمم السالفة من عهد إبراهيم عليه السلام إلى من بعده ضرباً من القربان وجعل العلة في ذلك أن يذكروا اسم الله تقدست أسماؤه على المناسك .

قال في التفسير الوسيط : أي شرعناها لكم وللأمم السابقة عليكم للإكثار من ذكر الله عند ذبحها فهو سبحانه الذي رزقكم إياها بفضله وإحسانه، فعليكم أن تكثروا من ذكره وشكره، ليزيدكم من خيره ورزقه.

وفي هذه الجملة الكريمة تقريع وتوبيخ لمن يذكرون غير اسم الله تعالى عند الذبح، وتأكيد لوجوب ذكر اسمه تعالى، حتى لكأن المقصود الأعظم من وراء ذبح هذه الأنعام، هو المداومة على ذكر اسم الله عز وجل، وعلى شكره سبحانه على نعمه، أما ما سوى ذلك كالأكل منها، والانتفاع بها.. فهي مقاصد فرعية.

قال السعدي: والحِكْمةُ في جَعْلِ اللهِ لكُلِّ أمَّةٍ مَنسَكًا: لإقامةِ ذِكرِه، والالتفاتِ لشُكرِه؛ ولهذا قال: لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .

(عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ) وهي الإبل والبقر والغنم .

(فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) أَيْ : مَعْبُودُكُمْ وَاحِدٌ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُ الْأَنْبِيَاءِ وَنَسَخَ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَالْجَمِيعُ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

فدعوة الرسل جميعاً هي التوحيد، وهي عبادة الله وحده وترك الشرك.

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ).

وقال تعالى (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ).

وقال تعالى (قُلْ إِنَّمَآ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ).

وقال ﷺ (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ الأَنْبِيَاءُ أَوْلاَدُ عَلاَّتٍ، .. وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ).

(الأنبياء أولاد عَلاّت) أولاد العلات: هم الأخوة للأب من أمهات شتى.

معنى الحديث: أن الأنبياء أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة، فإنهم متفقون في أصول التوحيد وأما فروع الشرائع فوقع فيها الخلاف.

قال تعالى (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً) .

قال ابن كثير : وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفاً فيزداد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

(**فَلَهُ أَسْلِمُوا**) أَيْ أَخْلِصُوا وَاسْتَسْلِمُوا لِحُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ .

قال البقاعي: ولَمَّا ثبَت كونُه واحِدًا، وجَب اختِصاصُه بالعبادةِ؛ فلذا قال: فَلَهُ أي: وحْدَه أَسْلِمُوا أي: انقادُوا بجميعِ ظَواهِرِكم وبَواطِنِكم في كلِّ ما أمَر به أو نَهَى عنه، ناسِخًا كان أو لا، وإنْ لم تَفهَموا معناه، كغالِب مَناسِكِ الحَجِّ .

وقال ابنُ عاشور: أي: فاتْرُكوا جميعَ المناسِكِ التي أُقيمَت لغيرِ اللهِ، فلا تَنسُكوا إلَّا في المِنسَكِ الذي جعَلَه لكم، تَعريضًا بالردِّ على المشرِكينَ .

(**وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ**) أي : بشر المطيعين المتواضعين الخاشعين بكل خير من خير الدنيا والآخرة .

قال ابن عطية : لمتواضعين الخاشعين من المؤمنين ، والخبت ما انخفض من الأرض والمخبت المتواضع الذي مشيه متطامن كأنه في حدود من الأرض .

ثم صفاتهم :

(**الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**) أي : خافت قلوبهم .

قال الخازن : (الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) يعني خافت من عقاب الله فيظهر عليها الخشوع والتواضع لله تعالى .

وقال السعدي : قوله تعالى (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) أي: خافت ورهبت، فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب.

فخوفهم جعلهم يتركون المحرمات ويخلصون لله .

قال تعالى (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً).

وقال تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ).

وذكر النبي ﷺ في حديث السبعة (ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) فالخشية الموجبة لدمع العين تؤدي إلى أن النار لا تمس العين يوم القيامة.

قال ابن عطية : وصَفَهم تعالى بالخَوفِ والوَجَلِ عندَ ذِكرِ اللهِ؛ وذلك لقُوَّةِ يَقينِهم، ومُراعاتِهم لرَبِّهم، وكأنَّهم بينَ يَدَيه .

فمن صفات المؤمنين عند سماع المواعظ ، البكاء والخوف .

قال ابن رجب رحمه الله : هذان الوصفان بهما مدح الله المؤمنين عند سماع الذكر .

كما قال تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) .

وقال سبحانه (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) .

وقال تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) .

وقال تعالى (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) .

وعن العرباض بن سارية قال (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله ! كأنها موعظة مودع فأوصنا . قال : أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، والسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة) رواه أبو داود والترمذي .

(**وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ**) من المصائب .

كما قال تعالى (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) .

(**وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ**) أي ومن صفاتهم أنهم يقيمون الصلاة على وجه مستقيم بشروطها وأركانها ومستحباتها كما جاء عن رسول الله ﷺ .

قال السعدي: لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون الصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقام الصلاة، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطناً بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها.

لم يأمر الله بالصلاة إلا بلفظ الإقامة ، كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة) وقوله تعالى (والمقيمين الصلاة) .

إقامة الصلاة ليس مجرد أداؤها ، وإنما المراد إقامتها بإدائها بتدبر وحضور قلب وخشوع، وهذه هي الصلاة التي قال الله عنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) .

فإن الله في هذه الآية علق حكم نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر بشرط إقامتها وليس فقط أداؤها (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فعلى قدر إقامة العبد لصلاته على قدر ما تؤثر فيه فتنهاه عن الفحشاء والمنكر ، وبهذا يزول الإشكال الذي يورده البعض : وهو أن كثير من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر .

قوله تعالى (ويقيمون الصلاة) يشمل صلاة الفرض والنفل .

قوله تعالى (ويقيمون الصلاة) فيه دليل على أهمية الصلاة وعظيم منزلتها وأنها من أعظم صفات المتقين ، ومما يدل على عظيم منزلتها :

أنها فرضت في أعلى مكان (في السماء ليلة الإسراء والمعراج) .

وفرضت خمس صلوات في اليوم والليلة ، وأول ما فرضت خمسين ثم خففت إلى خمس في العدد ، وهذا يدل على محبة الله لها ، وعنايته بها سبحانه .

أن تاركها كافر يحشر مع فرعون وقارون وأبي بن خلف ، وأعظم العبادات بعد الشهادتين ، وهي عمود الدين .

(**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون**) أي ينفقون بعض مالهم لا كله .

قال السعدي : وأتى بـ [من] الدالة على التبعيض، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم ، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه ، وينتفع به إخوانهم .

وقال السعدي: (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وهذا يشمَلُ جَميعَ النَّفَقاتِ الواجِبةِ؛ كالزَّكاةِ، والكفَّارة، والنَّفَقةِ على الزَّوجات والمماليكِ، والأقاربِ؛ والنَّفَقاتِ المستحَبَّة؛ كالصَّدَقاتِ بجَميعِ وُجوهِها. وأُتِيَ بـ مِنْ المفيدةِ للتَّبعيضِ؛ لِيُعلَمَ سُهولةُ ما أمَرَ اللهُ به ورَغَّبَ فيه، وأنَّه جزءٌ يَسيرٌ مِمَّا رزَقَ اللهُ، ليس للعَبدِ في تحصيلِه قُدرةٌ، لولا تيسيرُ اللهِ له ورِزقُه إيَّاه .

والإنفاق في طاعة الله تجارة رابحة .

قال الله سُبحانَه (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ) .

قال ابن كثير : (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون) أيْ وَيُنْفِقُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ طَيِّبِ الرِّزْقِ عَلَى أهليهم وأرقائهم وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى الخلق مَعَ مُحَافَظَتِهِمْ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ، وَهَذِهِ بِخِلَافِ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّهُمْ بِالْعَكْسِ مِنْ هَذا .

فالمنافق لا إخلاص ولا إنفاق .

قال تعالى (الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) .

وقال تعالى (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ).

وقال تعالى (وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً).

فضائل الإنفاق في سبيل الله .

أولاً : أن الإنفاق استجابة لأمر ربنا تعالى .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ) .

وقال تعالى (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

ثانياً : مضاعفة الحسنات .

قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

ثالثاً : أن درجة البر تنال بالإنفاق .

قال تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

رابعاً : أنها من صفات المتقين .

كما قال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) فقوله تعالى (فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ) دليل على الإنفاق ملازم لهم في جميع أحوالهم .

خامساً : الأمان من الخوف يوم الفزع الأكبر .

قال تعالى (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

سادساً : أن صاحب الإنفاق موعود بالخير الجزيل .

قال تعالى (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) .

وقال تعالى (فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) .

سابعاً : أن الله يخلف الصدقة .

قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) .

ثامناً : أن الإنفاق دليل على صحة الإيمان .

قال ﷺ (والصدقة برهان) رواه مسلم ، فالصدقة برهان على صحة الإيمان .

تاسعاً : ينال دعاء الملائكة .

كما قال ﷺ (ما من صباح إلا وينزل ملكان: يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه

عاشراً : فضل من سبق بالإنفاق والجهاد .

قال تعالى (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) .

الحادي عشر : أنها ارغام للشيطان وحسن ظن بالله .

قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

الثاني عشر : لا حسد إلا لمن أنفق في وجوه الخير .

قال ﷺ (لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ، فَهْوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا).

الثالث عشر : أن المنفق خير من الآخذ .

قال ﷺ (اليد العليا خير من اليد السفلى) .

قوله تعالى (الذين يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) كثيراً ما يقرن الله تبارك وتعالى بين الصلاة والإنفاق [الزكاة] كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) .

قيل : إن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده ، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم ، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين : إخلاصه لمعبوده ، وسعيه في نفع الخلق .

وقيل : الصلاة رأس العبادات البدنية ، والزكاة رأس العبادات المالية .

وقيل : الصلاة طهارة للنفس والبدن ، والزكاة طهارة للمال .

الفوائد :

١. أن لكل أمة منسكاً خاصاً بها .

٢. وجوب ذكر الله عند الذبح .

٣. أنَّ الذَّبائحَ التي يُتقَرَّبُ بها ليست مِن خَصائِصِ هذه الأمَّةِ، بل كانت لكُلِّ أمَّةٍ .

٤. أن الأعمال إنما شرعت لذكر الله .

٥. أنَّ ذَبْحَ الأُضحِيَّةِ وذِكْرَ اسمِ اللهِ عليها عِبادةٌ مَقصودةٌ بذاتِها، وأنَّها مِن توحيدِ اللهِ وتمامِ الاستِسلامِ له، ورُبَّما كان هذا المقصودُ أعظَمَ بكَثيرٍ مِن مُجَرَّدِ انتِفاعِ الفَقيرِ بها .

٦. أن من شكر الله الإكثار من ذكرة .

٧. أن الإله واحد ، وإنِ اختَلَفَت أجناسُ الشَّرائِعِ، فكُلُّها مُتَّفِقةٌ على هذا الأصلِ، وهو أُلوهيَّةُ اللهِ، وإفرادُه بالعُبوديَّةِ، وتَركُ الشِّركِ به؛ ولهذا قال تعالى: فَلَهُ أَسْلِمُوا .

٨. فضل الخوف من الله .

٩. أن المؤمن الحق يتعظ ويعتبر ويخشع عند ذكر الله .

١٠. عظم مكانة الصلاة في الإسلام .

١١. الحث على إقامة الصلاة بجميع مكملاتها .

١٢. فضل الإنفاق في سبيل الله .

١٣. فضل الكرم .

١٤. ذم البخل .

١٥. أن الإيمان ليس بالتمني ولكن بالعمل والتطبيق .

قال ابن عاشور : أتبَعَ صِفةَ المخبِتينَ بأربَعِ صِفاتٍ؛ وهي: وَجَلُ القُلوبِ عندَ ذِكرِ اللهِ، والصَّبرُ على الأذى في سَبيلِه، وإقامةُ الصَّلاةِ، والإنفاقُ، وكُلُّ هذه الصِّفاتِ الأربَعِ مَظاهِرُ للتَّواضُعِ، فليس المقصودُ مَن جَمَع تلك الصِّفاتِ؛ لأنَّ بَعضَ المؤمِنينَ لا يَجِدُ ما يُنفِقُ منه، وإنما المقصودُ مَن لم يُخِلَّ بواحدةٍ منها عندَ إمكانِها .

(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)) .

[الحج : ٣٦-٣٧] .

==========

(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ) أي: والإبِلَ الضِّخامَ العِظامَ الأجسامِ -وفي حُكمِها البقرُ- جعَلْناها لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن أعلامِ دِينِ اللهِ الظَّاهِرةِ التي يُتعبَّدُ ويُتقرَّبُ بها إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فشُرِعَ سَوقُها إلى البَيتِ، وتَقليدُها وإشعارُها، وتعظيمُها، ونَحْرُها والإطعامُ منها .

قال في (التفسير الوسيط) أي : وشرعنا لكم- أيها المؤمنون- التقرب إلينا بالإبل البدينة السمينة وجعلنا ذلك شعيرة من شعائر ديننا، وعلامة من العلامات الدالة على قوة إيمان من ينفذ هذه الشعيرة بتواضع وإخلاص.

والْبُدْنَ: أي: الإبِلَ، وقيل: الإبلَ والبقرَ، جَمعُ بَدَنةٍ، وسُمِّيَتْ بذلك؛ لِعِظَمِ بَدَنِها وضخامتِها، وهو اسمٌ مَأخوذٌ مِن البَدانةِ، وهي: عِظَمُ الجُثَّةِ والسِّمَنُ .

وخص البدن بالذكر – وهي الإبل – دون غيرها من بهيمة الأنعام مع أنها كونها كلها مما يشرع في الهدي ، لبيان أن البدن أفضل الهدي ، لعظمها وشرفها ومكانتها عند الناس ، ولكبرها وكثرة لحمها ، ولما لها من صفات عظيمة اختصها الله بها من بين سائر البهائم ، ولهذا وجه تعالى الأنظار للتأمل في عظيم خلقها ، والاستدلال بذلك على ربوبيته وعظيم قدرته قال تعالى (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) .

قال الماوردي : قوله عز وجل (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ) في البدن ثلاثة أقاويل : أحدها : أنها الإبل، وهو قول الجمهور.

قال الخازن : وَالْبُدْنَ جمع بدنة سميت بدنة لعظمها وضخامتها .

قال الشوكاني : وهذا الاسم خاص بالإبل.

وسميت بدنة ؛ لأنها تبدن ، والبدانة : السمن.

وقال أبو حنيفة ومالك : إنه يطلق على غير الإبل ، والأوّل أولى لما سيأتي من الأوصاف التي هي ظاهرة في الإبل ، ولما تفيده كتب اللغة من اختصاص هذا الاسم بالإبل.

(**لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ**) أي : لكم فيه خير في الدنيا عن طريق الانتفاع بألبانها ووبرها ، ولكم فيها خير في الآخرة عن طريق الثواب الجزيل الذي تنالونه من خالقكم بسبب استجابتكم لما أرشدكم إليه.

قال الخازن : يعني نفع في الدنيا وثواب في العقبى .

(**فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا**) إرشاد لما يقوله الذابح عند ذبحها ، أن تقولوا عند ذبحها : بسم الله .

(**صَوَافَّ**) أي : حال كونها صواف ، أي: فاذكُروا اسمَ اللهِ عِندَ نَحْرِكم الإبِلَ، وهي قائِمةٌ قد صُفَّت قَوائِمُها .

فيستَحَبُّ نَحرُ الإبِلِ قائِمةً مَعقولةً يَدُها اليُسرى .

وهو مَذهَبُ الجُمْهورِ: الحَنَفيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ، وحُكِيَ الإجماعُ على استِحبابِ نَحرِ الإبِلِ

لقوله (فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ)

(صَوافَّ) أي: قيامًا بأن تقامَ على قوائِمِها الأربَعِ، ثمَّ تُعقَلَ يدُها اليُسرى، ثمَّ تُنحَرَ

ولقَولُه تعالى (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا) .

فقوله (وَجَبَت) أي: سَقَطَت، إشارةً إلى أنَّها تُنحَرُ قائِمةً؛ إذ السُّقوطُ يكونُ مِنَ القيامِ

عن زيادِ بنِ جُبَيرٍ قال (رأيتُ ابنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أتى على رجُلٍ قد أناخ بَدَنَتَه يَنحَرُها، قال: ابعَثْها قِيامًا مُقَيَّدةً؛ سُنَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ) متفق عليه .

أنَّ الأسهَلَ في الإبِلِ النَّحْرُ؛ لخُلُوِّ لَبَّتِها عن اللَّحمِ واجتِماعِ اللَّحمِ فيما سواه مِن حَلْقِها، والبَقَرُ والغَنَمُ جَميعُ حَلْقِها لا يختَلِفُ

أنَّ المعنى في نَحرِ الإبِلِ أنَّه أسرَعُ لخُروجِ الرُّوحِ؛ لِطُولِ عُنُقِها

(**فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا**) أي: فإذا سَقَطت الإبِلُ بعد نَحْرِها، ووقَعَت جُنوبُها على الأرضِ، فكُلوا مِن لَحمِها

وجبت : أي سقطت .

(**فَكُلُوا مِنْهَا**) أي : من هذه الهدايا .

(**وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ**) اختلف في ذلك :

فقيل : القانع المتعفف الذي لا يسأل ، والمعتر : السائل .

واختاره السعدي .

وقال الرازي : الأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح ، والمعتر : هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال .

وقيل : القانِعَ، وهو: الفَقيرُ السَّائِلُ ، المعْتَرَّ وهو: الذي يأتي مُتَعَرِّضًا للنَّوالِ مِن غَيرِ طَلَبٍ ولا سُؤالٍ .

واختاره : ابن جرير ، والسمعاني، وابن عاشور، والشنقيطي.

قال الشنقيطي : وللعلماء في تفسير القانع والمعتر أقوال متعددة متقاربة أظهرها عندي : أن القانع هو الطامع الذي يسأل أن يعطى من اللحم ، وأن المعتر هو الذي يعتري متعرضاً للإعطاء من غير سؤال وطلب .

قال ابن قتيبة : يقال : قَنَع يَقْنَع قُنوعاً : إذا سأل ، وقَنِع يَقْنَع قَنَاعة : إذا رضي ، ويقال في المعتر : اعترَّني واعتراني وعَرَاني.

وقال الزجاج : مذهب أهل اللغة أن القانع : السائل ، يقال : قَنَع يَقْنَع قُنُوعاً : إذا سأل ، فهو قانع ، قال الشماخ : لَمَالُ المْرِءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِي . . .مَفاقِرَهُ أعَفُّ مِنَ القُنُوع .

أي : من السؤال ؛ ويقال : قَنِعَ قَنَاعة : إذا رضي ، فهو قَنِع ، والمعترُّ والمعتري واحد.

(**كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ**) أي : منْ أَجْلِ هَذَا سَخَّرْناها لَكُمْ أَيْ ذللناها لكم، وجعلناها مُنْقَادَةً لَكُمْ خَاضِعَةً، إِنْ شِئْتُمْ رَكِبْتُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ حَلَبْتُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ ذَبَحْتُمْ .

كما قال تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) .

(**لعلكم تشكرون**) الله على تسخيرها، فإنه لولا تسخيره لها، لم يكن لكم بها طاقة، ولكنه ذللها لكم وسخرها، رحمة بكم وإحسانا إليكم، فاحمدوه.

والشكر: هو القيام بطاعة المنعم اعترافاً بالقلب، وثناء باللسان، وطاعة بالأركان. (هو أن يستعمل نعمه في طاعة الله) .

بالقلب، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ).

وباللسان، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).

وبالجوارح، قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) .

وحديث قيام النبي ﷺ بالليل وقوله (أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً) .

- **الحكمة من التذكير بالنعم:**

أولاً : أن تذكير النعم الكثيرة يوجب الحياء عن إظهار المخالفة.

ثانياً : أن ذلك يوجب محبة الله.

ثالثاً : أن ذكر النعم تسهل الانقياد لطاعة الله والقيام بأمره.

وقال السعدي: يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم. فإن في استدامة ذكرها داعيا لشكر الله تعالى ومحبته، وامتلاء القلب من إحسانه. وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية، وزيادة لفضل الله وإحسانه .

كيف تحقيق الشكر؟

أولاً: سؤال الله ذلك.

كما قال تعالى عن سليمان: (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ).

وقال ﷺ لمعاذ: (يا معاذ، لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) رواه أبو داود.

ثانياً: أن يعلم الإنسان أن النعم إذا شكرت قرت وزادت.

قال تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ).

ثالثاً : أن ينظر إلى من هو دونه في أمور الدنيا، فإذا فعل ذلك استعظم ما أعطاه الله.

قال ﷺ (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم).

والله شكور : وشكر الله لعبده:

كقوله تعالى (ومَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) .

وقوله تعالى (إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) .

ومعنى شكر الله لعبده: هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل، فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، وإذا ترك له شيئاً أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئاً ردّه عليه أضعافاً مضاعفة.

(**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ**) أي : لن يصل إلى الله- تعالى- لحم هذه الأنعام ودماؤها، من حيث هي لحوم ودماء، ولكن الذي يصل إليه- سبحانه- ويثيبكم عليه، هو تقواكم ومراقبتكم له- سبحانه- وخوفكم منه، واستقامتكم على أمره وإخلاصكم العبادة له.

فهو الغني سبحانه كما قال تعالى (وهو يطعم ولا يطعم) وقال تعالى (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) .

قال ابن الجوزي : قال المفسرون : ومعنى الآية : لن تُرفع إِلى الله لحومُها ولا دماؤها ، وإِنما يُرفع إِليه التقوى ؛ وهو ما أُرِيدَ به وجهُه منكم.

وقال السعدي : ليس المقصود منها ذبحها فقط. ولا ينال الله من لحومها ولا دمائها شيء، لكونه الغني الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها، والاحتساب، والنية الصالحة، ولهذا قال (وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) ففي هذا حث وترغيب على الإخلاص في النحر، وأن يكون القصد وجه الله وحده، لا فخرا ولا رياء، ولا سمعة، ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات، إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى الله، كانت كالقشور الذي لا لب فيه، والجسد الذي لا روح فيه.

قالوا: وفي هذا إشارة إلى قبح ما كان يفعله المشركون، من تقطيعهم للحوم الأنعام، ونشرها حول الكعبة، وتلطيخها بالدماء، وتحذير للمسلمين من أن يفعلوا فعل هؤلاء الجهلاء، إذ رضا الله- تعالى- لا ينال بذلك، وإنما ينال بتقوى القلوب.

(**كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ**) ذللها لكم .

(**لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ**) أي : تعظموه وتجلوه .

(**عَلَى مَا هَدَاكُمْ**) لهذه الشعائر والعبادات الجليلة .

(**وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ**) بعبادة الله بأن يعبدوا الله، كأنهم يرونه، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة فليعبدوه، معتقدين وقت عبادتهم اطلاعه عليهم، ورؤيته إياهم، والمحسنين لعباد الله، بجميع وجوه الإحسان من نفع مال، أو علم، أو جاه، أو نصح، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو كلمة طيبة ونحو ذلك، فالمحسنون لهم البشارة من الله، بسعادة الدنيا والآخرة وسيحسن الله إليهم، كما أحسنوا في عبادته ولعباده (هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ) (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) .

الإحسان نوعان :

إحسان في عبادة الخالق، إحسان إلى المخلوق.

في عبادة الله، إخلاصاً لله تعالى، ومتابعة للرسول ﷺ، كما قال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) وقال تعالى (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ).

فالإحسان في عبادة الله: أن تقوم بالعمل متقناً فيه إخلاصاً ومتابعة.

والإحسان إلى المخلوق: بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك.

وأعظم دافع للإحسان مراقبة الله تعالى، ولذلك قال النبي ﷺ في تعريفه (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تره فإنه يراك).

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينياً أن الله مطلع عليه.

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل.

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً). ولم يقل أيكم أكثر عملاً.

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).

الفوائد :

١. أفضل ما يقدم للحرم البدن .

٢. التنويه بشأنها وأنها من شعائر الله .

٣. وجوب ذكر الله عند ذبحها .

٤. بركة اسم الله .

٥. استحباب الأكل من الهدي .

٦. استحباب إعطاء المحتاج سأل أو لم يسأل .

٧. منّة الله تعالى بتسخير هذه المخلوقات العظيمة ، يركبونها ، يشربون من ألبانها وغير ذلك .

٨. وجوب شكر الله تعالى .

٩. عظم عبادة الشكر .

١٠. على العبد أن يتذكر دائماً نعم الله عليه ، فإن ذلك يقوده للشكر .

١١. رحمة الله بعباده ، حيث يحثهم على الشكر ليعطيهم المزيد .

١٢. أن الحكمة من الهدايا والذبح إخلاص العمل لله .

١٣. الحث على الإخلاص في جميع الأعمال .

١٤. البشارة المطلقة للمحسنين .

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨))

[الحج : ٣٨] .

==========

(**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ** ...) يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَدْفَعُ عَنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَأَنَابُوا إِلَيْهِ شَرَّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدَ الْفُجَّارِ وَيَحْفَظُهُمْ وَيَكْلَؤُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ،.

كَمَا قَالَ تَعَالَى (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ) .

وقَالَ تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً) .

قال الرازي : ذكر (إِنَّ الله يُدَافِعُ عَنِ الذين ءامَنُواْ) ولم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم ، وإن كان في الحقيقة أنه يدافع بأس المشركين.

(**إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ**) أَيْ لَا يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ مَنِ اتَّصَفَ بِهَذَا، وَهُوَ الْخِيَانَةُ فِي الْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ لَا يَفِي بِمَا قَالَ، وَالْكُفْرُ الْجَحْدُ للنعم، فلا يعترف بها. (ابن كثير) .

فائدة : ١

فضل الإيمان وأهله وأن الله يدافع عنهم وينصرهم .

قال الرازي : هذه الآية بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار وكف بوائقهم عنهم وهي كقوله (لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذي) وقوله (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين ءَامَنُواْ) وقال (إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون) (وأخرى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مّن الله وَفَتْحٌ قَرِيب) .

وقال السعدي : هذا إخبار ووعد وبشارة من الله، للذين آمنوا، أن الله يدافع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم كل شر –بسبب إيمانهم– من شر الكفار، وشر وسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره، ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف. كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقل ومستكثر.

فائدة : ٢

وللإيمان فضائل:

أولاً: الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة.

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا).

ثانياً: الأجر العظيم.

قال تعالى (وسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً).

ثالثاً: استغفار الملائكة وحملة العرش لهم.

قال تعالى (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا

رابعاً: موالاة الله لهم، ولا يُذَل من والاه الله.

قال تعالى (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا).

خامساً: أمر الملائكة بتثبيتهم.

قال تعالى (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا).

سادساً: العزة.

قال تعالى (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ).

سابعاً: معية الله لهم.

قال تعالى (وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ).

ثامناً: الرفعة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ).

تاسعاً: أن القرآن إنما هو هدى لهم وشفاء.

قال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء).

عاشراً: الود الذي يجعله الله سبحانه لهم.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً).

فائدة : ٣

قال السعدي : هذا إخبارٌ ووَعدٌ وبِشارةٌ مِن اللهِ للذين آمنوا، وكُلُّ مُؤمِنٍ له مِن هذه المدافَعةِ والفَضيلةِ بحَسَبِ إيمانِه، فمُستَقِلٌّ ومُستَكثِرٌ ... فبحَسَبِ إيمانِه يكونُ دِفاعُ اللهِ عنه؛ فإنْ كَمَل إيمانُه كان دَفْعُ اللهِ عنه أتمَّ دَفعٍ، وإنْ مَزَج مُزِجَ له، وإن كان مرَّةً ومرَّةً فاللهُ له مرَّةً ومرَّةً، كما قال بَعضُ السَّلَفِ: مَن أقبَلَ على اللهِ بكُلِّيَّتِه أقبل اللهُ عليه جُملةً، ومن أعرَضَ عن الله بكُلِّيَّتِه أعرضَ اللهُ عنه جملةً، ومن كان مرَّةً ومرَّةً فاللهُ له مرَّةً ومرَّةً .

فائدة : ٤

ذم الخيانة .

قال ابن عاشور: وحقيقة الخيانة عمل من اؤتمن على شيء بضد ما اؤتمن لأجله، بدون علم صاحب الأمانة.

وقيل: هي الاستبداد بما يؤتمن الإنسان عليه من الأموال والأعراض والحرم، وتملك ما يستودع، ومجاحدة مودعه.

فائدة : ٥

قال البقاعي : (كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) وأتى بالصفتين على صيغة المبالغة لأن نقائص الإنسان لا يمكنه أن يفعلها خالية عن المبالغة، لأنه يخون نفسه بالعزم أولاً ، والفعل ثانياً وغيره من الخلق ثالثاً ، وكذا يخون نفسه ربه سبحانه وهكذا في الكفر وغيره ، ولما كانت الخيانة منبع النقائص ، كانت المبالغة فيها أكثر.

فائدة : ٦

الخيانة من صفات المنافقين.

كما قال ﷺ (آية المنافق ثلاث: ... وإذا اؤتمن خان).

قال ابن عثيمين في قوله (إذا اؤتمن خان) إذا ائتمنه إنسان على شيء خانه.

والله لا يحب الخائنين.

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ).

وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ).

وتعوذ منها النبي ﷺ .

قال ﷺ (... وأعوذ بك من الخيانة، فإنها بئس البطانة).

وهي من صفات آخر الزمان.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ (خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم) – قال عمران: لا أدري أذكر النبي ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة– قال النبي ﷺ : إن بعدكم قومًا يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السِّمَن).

ومن صور الخيانة:

قال ﷺ (من استشار أخوه المسلم فأشار عليه بغير رشد فقد خانه).

فالمستشار مؤتمن كما قال ﷺ .

ومنها: الخيانة بامرأة المجاهد.

قال ﷺ (حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وُقّف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم) رواه مسلم.

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١)) .

[الحج : ٣٩-٤١] .

==========

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) أي: أَذِنَ اللهُ للمُؤمِنينَ في قِتالِ الكُفَّارِ الذين يُقاتِلونَهم؛ وذلك بسَبَبِ ظُلمِهم لهم، بمُحارَبتِهم في دِينِهم وأذِيَّتِهم، وإخراجِهم مِن ديارِهم .

وقوله (بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) فالمراد أنهم أذنوا في القتال بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان مشركوا مكة يؤذونهم أذى شديداً .

قال السعدي : كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار، ومأمورين بالصبر عليهم، لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلى المدينة، وأوذوا، وحصل لهم منعة وقوة، أذن لهم بالقتال، قال تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ) يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلون، وإنما أذن لهم، لأنهم ظلموا، بمنعهم من دينهم، وأذيتهم عليه، وإخراجهم من ديارهم.

قال ابن كثير : وَإِنَّمَا شَرَعَ تَعَالَى الْجِهَادَ فِي الْوَقْتِ الْأَلْيَقِ بِهِ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا بِمَكَّةَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ أَكْثَرَ عَدَدًا فَلَوْ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ أَقَلُّ مِنَ الْعُشْرِ بِقِتَالِ الْبَاقِينَ لَشَقَّ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا لَمَّا بَايَعَ أَهْلُ يَثْرِبَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَكَانُوا نَيِّفًا وَثَمَانِينَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَمِيلُ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، يَعْنُونَ أَهْلَ مِنًى، لَيَالِيَ مِنًى فَنَقْتُلُهُمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِي لم أومر بِهَذَا» فَلَمَّا بَغَى الْمُشْرِكُونَ وَأَخْرَجُوا النَّبِيَّ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ، وَشَرَّدُوا أَصْحَابَهُ شَذَرَ مَذَرَ، فَذَهَبَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ إِلَى الْحَبَشَةِ وَآخَرُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا اسْتَقَرُّوا بِالْمَدِينَةِ وَوَافَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، وَقَامُوا بِنَصْرِهِ وَصَارَتْ لَهُمْ دَارُ إِسْلَامٍ وَمَعْقِلًا يَلْجَئُونَ إِلَيْهِ، شَرَعَ اللَّهُ جِهَادَ الْأَعْدَاءِ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَوَّلَ مَا نَزَلَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ .

قال الشوكاني: هذه الآيةُ مقرِّرةٌ أيضًا لمضمونِ قولِه: إنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ؛ فإنَّ إباحةَ القتالِ لهم هي مِن جملةِ دفْعِ اللهِ عنهم .

وقال ابنُ تيميَّةَ: أوَّلُ آيةٍ نَزَلت في القتالِ قَولُه تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) فأذِنَ اللهُ لهم أوَّلًا فيه، ثمَّ كُتِبَ عليهم ثانيًا فقال: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ .

وقال البِقاعي : (لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ) أي: للَّذين فيهم قوَّةُ المدافعة، في المدافعةِ بالقِتالِ بعدَ أنْ كانوا يُمنَعون منه بمكَّة ويُؤمَرون بالصفح **وقال الشِّنقيطيُّ**: دلَّ قوله: يُقَاتَلُونَ على أنَّ المرادُ مَن يَصلُح للقِتالِ منهم دونَ مَن لا يصلُحُ له؛ كالأعمى والأعرجِ، والمريضِ والضعيفِ، والعاجزِ عن السَّفرِ للجِهادِ لفَقرِه .

(وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) أيْ : هُوَ قَادِرٌ عَلَى نَصْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ، وَلَكِنْ هُوَ يُرِيدُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يبذلوا جَهْدَهُمْ فِي طَاعَتِهِ .

كَمَا قَالَ (فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ) .

وَقَالَ تَعَالَى(قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وَقَالَ (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ) .

وقال (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) .

وَقَالَ (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ) وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

(**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**) أي: الذين أخرَجَهم الكُفَّارُ ظُلمًا مِن دِيارِهم بغيرِ حَقٍّ يُوجِبُ ذلك، وما كان لهم ذَنبٌ يَنقِم عليهم أعداؤُهم بسَبَبِه إلَّا أنَّهم قالوا ربُّنا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له!

كما قال تعالى (يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ) .

وَقَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ (وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) .

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَرْتَجِزُونَ فِي بناء الخندق ويقولون:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا .

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا .

قال الرازي : فبين تعالى ظلمهم لهم بهذين الوجهين :

أحدهما : أنهم أخرجوهم من ديارهم .

والثاني : أنهم أخرجوهم بسبب أنهم قالوا (رَبُّنَا الله) وكل واحد من الوجهين عظيم في الظلم .

(**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ**) فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين .

(**لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ**) معابد الرهبان ، وقيل : المعابد الصغار للرهبان .

(**وَبِيَعٌ**) كنائس النصارى .

(**وَصَلَوَاتٌ**) كنائس اليهود .

(**وَمَسَاجِدُ**) المسلمين .

(**يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا**) قوله (**يذكر فيها**) **قيل**: الضَّميرُ في فِيهَا يعودُ على أقرَبِ مذكورٍ، وهو المساجِدُ .

وقيل: هو عائدٌ على جميعِ المعابِدِ المذكورةِ: (الصَّوامِعُ، والبِيَعُ، والصَّلواتُ، والمساجِدُ) .

وممن قال بذلك: السعدي، وابن عاشور.

معنى الآية :

قال الزجاج : وتأويل هذا: لولا أن الله – عزَّ وجل – دَفَع بعض الناس بَبَعْض لَهُدِّمَ في شريعة كُلِّ نَبِيٍّ المكَانَ الَّذِي كان يُصَلِّي فيه، فَكَانَ لولَا الدفعُ لَهُدِمَ في زمن موسى عليه السلام الكنائس التي كان يصلي فيها في شريعته، وفي زَمَنِ عيسى الصوامع والبِيَعُ، وفي زمن محمد ﷺ المساجِدُ.

قال الرازي : فعلى هذا إنما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ .

قال الآلوسي : تحريض على القتال المأذون فيه بإفادة أنه تعالى أجرى العادة بذلك في الأمم الماضية لينتظم به الأمر وتقوم الشرائع وتصان المتعبدات من الهدم .

وقال الشوكاني : (ولولا دفع ...) والمعنى : لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك ، وذهبت مواضع العبادة من الأرض ، ومعنى (لَهُدِّمَتْ) لخربت باستيلاء أهل الشرك على أهل الملل.

وقال القاسمي : أي لولا كفه تعالى المشركين بالمسلمين ، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين ، لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم ، وعلى متعبداتهم فهدموها .

والتعبير بقوله تعالى (لَهُدِّمَتْ) بالتشديد للإشعار بأن عدم مشروعية القتال، يؤدى إلى فساد ذريع، وإلى تحطيم شديد لأماكن العبادة والطاعة لله– عز وجل–.

وقدم الصوامع والبيع والصلوات على المساجد، باعتبار أنها أقدم منها في الوجود، أو للانتقال من الشريف إلى الأشرف.

قال أبو السعود : (يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً) أي ذكراً كثيراً أو وقتاً ، صفةٌ مادحة للمساجدِ خُصَّت بها دلالةً على فضلها وفضلِ أهلها وقيل صفةٌ للأربعِ وليس كذلك فإنَّ بيان ذكرِ الله عزَّ وجلَّ في الصَّوامعِ والبيعِ والكنائسِ بعد انتساخِ شرعيَّتها ممَّا لا يقتضيه المقامُ ولا يرتضيه الأفهامُ . انتهى .

وقد قال تعالى في سورة البقرة (ولَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) .

قال ابن عطية : (ولولا دفع ...) الآية تقوية للأمرِ بالقتالِ، وذَكَرَ الحُجَّةَ بالمصلحةِ فيه، وذكر أنَّه متقَدِّمٌ في الاسمِ، وبه صلحت الشرائِعُ، واجتمعت المتعَبَّداتُ، فكأنَّه قال: أُذِنَ في القتالِ فلْيُقاتِلِ المؤمنونَ، ولولا القتالُ والجهادُ لتُغُلِّبَ على الحَقِّ في كلِّ أمَّةٍ. هذا أصوبُ تأويلاتِ الآيةِ .

وقال أيضًا: ومعاني هذه الأسماءِ هي في الأُمَمِ التي لها كتابٌ على قديمِ الدَّهرِ، ولم يُذكَرْ في هذه المجوسُ ولا أهلُ الإشراك؛ لأنَّ هؤلاء ليس لهم ما تجِبُ حمايتُه، ولا يوجَدُ ذِكرُ اللهِ إلَّا عند أهلِ الشَّرائعِ .

وقال القرطبيُّ: أي: لولا ما شرَعه اللهُ تعالى للأنبياءِ والمؤمِنينَ مِن قِتالِ الأعداءِ لاستولَى أهلُ الشِّركِ، وعطَّلوا ما بَنَتْه أربابُ الدِّياناتِ مِن مواضِعِ العباداتِ، ولكنَّه دفَع بأنْ أوجبَ القِتالَ؛ ليتفرَّغَ أهلُ الدِّينِ للعبادةِ؛ فالجهادُ أمرٌ متقدِّمٌ في الأمَمِ، وبه صَلَحت الشَّرائعُ، واجتَمَعت المتعبَّداتُ، فكأنَّه قال: أُذِنَ في القتالِ، فليُقاتِلِ المؤمِنونَ، ثم قُوِّيَ هذا الأمرُ في القِتال بقَولِه: وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ الآيةَ، أي: لولا القتالُ والجِهادُ لتُغلِّبَ على الحقِّ في كلِّ أمَّةٍ؛ فمَن استَبشَع مِن النَّصارى والصَّابئين الجِهادَ فهو مُناقِضٌ لِمَذهبِه؛ إذ لولا القتالُ لَمَا بقِيَ الدِّينُ الذي يَذُبُّ عنه، وأيضًا هذه المواضِعُ التي اتُّخِذَت قبْلَ تحريفِهم وتبديلِهم، وقبل نسْخِ تلك المِلل بالإسلامِ: إنَّما ذُكِرَتْ لهذا المعنى، أي: لولا هذا الدَّفعُ لَهُدِّمَ في زَمَنِ موسى الكنائِسُ، وفي زمَن عيسى الصَّوامِعُ والبِيَعُ، وفي زَمَنِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ المساجِدُ .

(**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**) أي: ولَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يجاهِدُ في سَبيلِه؛ لِتَكونَ كَلِمتُه هي العُليا .

قال الشنقيطي : بيّن الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه أقسم لينصرن من ينصره ، ومعلوم أن نصر الله إنما هو باتباع ما شرعه بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ونصرة رسله وأتباعهم ، ونصرة دينه وجهاد أعدائه وقهرهم حتى تكون كلمته جل وعلا هي العليا ، وكلمة أعدائه هي السفلى.

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ) .

قال الرازي : وفيه ترغيب في الجهاد من حيث وعدهم النصر .

(**إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**) وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ، فَبِقُوَّتِهِ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا، وَبِعِزَّتِهِ لَا يَقْهَرُهُ قَاهِرٌ وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ ذَلِيلٌ لَدَيْهِ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ نَاصِرَهُ فَهُوَ الْمَنْصُورُ وَعَدُوُّهُ هُوَ الْمَقْهُورُ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ) .

وَقَالَ تَعَالَى (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) .

ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف، أن من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب فقال :

(**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ**) أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض .

(**أَقَامُوا الصَّلاةَ**) أي أقاموها بحضور قلب وخشوع والإتيان بأراكنها وواجباتها ومستحباها .

(**وَآتَوُا الزَّكَاةَ**) أي أعطوا الزكاة الواجبة لمستحقيها .

الزكاة شرعاً: دفع مال مخصوص لطائفة مخصوصة تعبداً لله تعالى.

وسميت بذلك: لأنها تزكي المال، وتزكي صاحب المال، كما قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ)، بل وتزكي المجتمع كله، فتنتشر المحبة والوئام والإخاء.

وسميت زكاة: لأنها تزكي المال، وتزكي صاحب المال، وتطهر نفس الغني من الشح والبخل، وتطهر نفس الفقير من الحسد والضغينة، وتسد حاجة الإسلام والمسلمين.

كما قال تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها).

وقال ﷺ (ما نقصت صدقة من مال) رواه مسلم.

ومن حِكمِها: تطهير أصحاب الأموال من الشح والبخل، تقوية روابط المجتمع، تزيد المحبة والمودة بين أفراد المجتمع، وأيضاً فيها امتحان للنفس، لأن المال محبوب للنفس، والنفس تبخل به، إعانة الضعفاء وكفاية أصحاب الحاجة، وتكفر الخطايا وتدفع البلاء، ومجلبة للمحبة.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: إن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أسباب النصر، لأن الله ذكرها بعد قوله (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ).

وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من صفات الرجال العظماء.

قال تعالى (رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ).

(**وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ**) وفي هذا فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنه من أسباب التمكين .

فهو مهمة الرسل.

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

وقال تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ...).

ومن صفات المؤمنين .

قال تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ).

وقال تعالى (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ).

قال الغزالي: فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية.

أن خيرية الأمة مناطة بهذه الشعيرة .

قال تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ).

من أوصاف سيد المرسلين .

قال تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ).

من خصال الصالحين .

قال تعالى (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ).

من أسباب النصر والتمكين .

كما في هذه الآية .

من أسباب النجاة .

قال تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ).

ولقوله ﷺ (فمن أنكر فقد سلم).

من أسباب تكفير الذنوب .

قال ﷺ (فتنة الرجل في أهله وماله وولده ونفسه وجاره، يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) رواه مسلم.

أنه طريق الفلاح .

لقوله تعالى (ولتكن مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

(**وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**) أي: جميع الأمور، ترجع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى، فمن سلطه الله على العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة، والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه، فإنه وإن حصل له ملك موقت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشئومة، وعاقبته مذمومة.

الفوائد :

١. الأمر بالجهاد .

٢. من حكم الجهاد دفع الظلم .

٣. حكمة الله تعالى في شرعية الجهاد ، فترك الجهاد يفوت مصالح عظيمة للمسلمين : منها الأجر والثواب والشهادة والمغنم والتربية الإيمانية التي لا تحصل بدون الجهاد ودفع شر الكفار وإذلالهم.

قال ابن تيمية: فَإِذَا تَرَكَ النَّاسُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ يَبْتَلِيهِمْ بِأَنْ يُوقِعَ بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ حَتَّى تَقَعَ بَيْنَهُمْ الْفِتْنَةُ كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ إذَا اشْتَغَلُوا بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَمَعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَأَلَّفَ بَيْنَهُمْ وَجَعَلَ بَأْسَهُمْ عَلَى عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِم..

وقال رحمه الله: نفع الجهاد عامٌ لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فإنه مشتملٌ من محبة الله تعالى، والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له، والصبر والزهد، وذكر الله، وسائر أنواع العمل: على ما لا يشتمل عليه عملٌ آخر.»

وقال: فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة: فهو في الفتنة ساقط بما وقع فيه من ريب قلبه ومرض فؤاده، وتركه ما أمر الله به من الجهاد، فتدبر هذا فإن هذا مقام خطر.

وقال: ولهذا كانت أكثر الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة والجهاد، وكان إذا عاد مريضاً يقول: اللهم اشف عبدك، يشهد لك صلاة، وينكأ لك عدواً .

٤. حكمة الله في تأخير فرضية الجهاد .

٥. الترغيب الشديد في الجهاد ، لأن الله وعدهم بالنصر .

٦. من أعظم محفزات الجهاد الثقة بنصر الله .

٧. قوله تعالى (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) هذا يدل على حكمة الجهاد، وأن المقصود منه إقامة دين الله، وذب الكفار المؤذين للمؤمنين، البادئين لهم بالاعتداء، عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة . (السعدي) .

٨. لولا الجهاد لتعطلت شعائر الإسلام كالمساجد على أيدي الكفار .

٩. من أعظم حكم الجهاد استمرار إقامة ذكر الله .

١٠. وعد من الله : من نصر الله نصره الله .

١١. من أراد أن يكون قوياً فليعتصم بالقوي العزيز سبحانه .

١٢. بيان شروط النصر والتمكين .

١٣. أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أسباب النصر والتمكين .

١٤. من أعظم أسباب التمكين إقامة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

١٥. فيه التَّنبيهُ على الشُّكرِ على نِعمةِ النَّصرِ، بأن يأتُوا بما أمَرَ اللهُ به مِن أصولِ الإسلامِ؛ فإنَّ بذلك دوامَ نَصرِهم .

١٦. بيانُ شُروطِ النَّصرِ وأسبابِه، فإذا تمَّت هذه الأسبابُ حَصَل النَّصرُ، أمَّا إذا تخَلَّف واحِدٌ منها فإنَّه يَفوتُ النَّصرُ بقَدرِ ما تخَلَّفَ

(**وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤)**) .

[الحج : ٤٢-٤٤] .

==========

(**وَإِن يُكَذِّبُوكَ**) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : وإن يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كذب، وليسوا بأول أمة كذبت رسوله

قال القرطبي : هذا تسلية للنبيّ ﷺ وتعزيةٌ ؛ أي كان قبلك أنبياء كُذِّبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذِّبين ، فاقتد بهم واصبر.

وقال الشوكاني : هذه تسلية لرسول الله ﷺ وتعزية له متضمنة للوعد له بإهلاك المكذبين له كما أهلك سبحانه المكذبين لمن كان قبله ، وفيه إرشاد له ﷺ إلى الصبر على قومه والاقتداء بمن قبله من الأنبياء في ذلك ، وقد تقدّم ذكر هذه الأمم وما كان منهم ومن أنبيائهم وكيف كانت عاقبتهم.

وقال الشنقيطي : هذه الآيات الكريمة تسلية للنبي ﷺ بأن الذي عامله به قومه من التكذيب عومل به غيره من الرسل الكرام ، وذلك يسليه ويخفف عليه .

كما قال تعالى (وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) .

وقوله تعالى (مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِك) .

وقوله (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ) .

(**فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ**) وهم أول أمة كذبت نبيها .

قال تعالى (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين) وقال تعالى (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وازدجر) .

(**وَعَادٌ**) وقد بين تعالى في غير هذا الموضع في آيات كثيرة أنهم كذبوا رسولهم هوداً .

كقوله تعالى (كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين) وقال تعالى (قَالُواْ يا هود مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بتاركي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) .

(**وَثَمُودُ**) كما قال تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين) وقال تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا) .

(**وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ**) وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أنهم كذبوه في آيات كثيرة .

كقوله تعالى (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ الله مِنَ النار) .

وقوله (قَالُواْ حَرِّقُوهُ وانصروا آلِهَتَكُمْ) .

وكقوله (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يا إبراهيم لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهجرني مَلِيّاً) .

(**وَقَوْمُ لُوطٍ**) وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أنهم كذبوه في آيات كثيرة .

كقوله (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسلين)

وقوله (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ) .

(**وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ**) وقد بين تعالى أنهم كذبوا نبيهم شعيباً في غير هذا الموضع في آيات كثيرة :

كقوله (أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ) .

وقوله (قَالُواْ يا شعيب أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد) .

وقوله (قَالُواْ يا شعيب مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ) .

(**وَكُذِّبَ مُوسَى**) الذين كذبوا موسى وهم فرعون وقومه ، وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أن فرعون وقومه كذبوا موسى في آيات كثيرة :

كقوله (لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين) .

وقوله تعالى (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الكافرين) .

وقوله (وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) .

(**فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ**) فلم أعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلتهم، حتى استمروا في طغيانهم يعمهون، وفي كفرهم وشرهم يزدادون .

قال ابن عاشور : والإملاءُ ترك المتلبّس بالعِصيان دون تعجيل عقوبته وتأخيرها إلى وقت متأخر حتى يحسب أنه قد نَجا ثم يؤخذ بالعقوبة.

(**ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ**) بالعذاب أخذ عزيز مقتدر .

وقد بين تعالى نوع العذاب الذي عذب به كل أمة من تلك الأمم ، بعد الإملاء لها والإمهال :

فقوم نوح : بالطوفان .

كما قال تعالى (وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ).

وقال تعالى (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا).

وقال تعالى (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ).

وقوم عاد : بالريح العقيم :

فقال تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ).

وقال تعالى (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ).

وقال تعالى وقوله (بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ) .

وقوم ثمود : بالصيحة .

قال تعالى (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين).

وقال تعالى (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ).

– قوله تعالى (فأخذتهم الرجفة) قال الفراء والزجاج: هي الزلزلة الشديدة.

– قال الشنقيطي: الرجفة هي الاضطراب الشديد، أي: رجفت بهم الأرض واضطربت اضطراباً شديداً.

ولا منافاة: فالظاهر أن الملك لما صاح بهم اضطربت الأرض من تحتهم فأهلكهم الله بهما جميعاً.

وقوم إبراهيم :

الذين كذبوه هم نمروذ ، وقومه ، وقد ذكر المفسرون أن العذاب الدنيوي الذي أهلكهم الله به هو المذكور في قوله تعالى في سورة النحل (قَدْ مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى الله بُنْيَانَهُمْ مِّنَ القواعد فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ) .

وقوم لوط : رفع الله قراهم فجعل عاليها سافلها، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود.

كما قال تعالى (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ).

وقال تعالى (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ. مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ).

وقال تعالى (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ).

والتحقيقُ: أن السجيلَ: أنه الطينُ؛ لأَنَّ اللهَ قال (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ) وخيرُ ما يُفَسِّرُ القرآنَ القرآنُ، إلا أنه طينٌ مشويٌّ بالنارِ، شديدُ الحرارةِ، لا يأتي على شيءٍ إلا حَرَقَهُ.

(مَّنضُودٍ) أي: مجعول بعضه فوق بعض.

(مسومة) أي: مجعولاً فيها علامة تميزها، قيل: على كل حجر اسم من يرمي به.

أصحاب مدين : بالصيحة .

الْهَلَاكُ الَّذِي أَصَابَ قَوْمَ شُعَيْبٍ ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْأَعْرَافِ أَنَّهُ رَجْفَةٌ، قال تعالى فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) .

وذَكَرَ فِي هُودٍ أَنَّهُ صَيْحَةٌ (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) .

وَذَكَرَ فِي الشُّعَرَاءِ أَنَّهُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ، قال تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم).

والجمع : ما قَالَهُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ قَالَ: وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُ أَصَابَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ وَهِيَ سَحَابَةٌ أَظَلَّتْهُمْ فِيهَا شَرَرٌ مِنْ نَارٍ وَلَهَبٍ وَوَهَجٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَرَجْفَةٌ مِنَ الْأَرْضِ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَزَهَقَتِ الْأَرْوَاحُ، وَفَاضَتِ النُّفُوسُ، وَخَمَدَتِ الْأَجْسَامُ. اهـ مِنْهُ.

وكذب موسى :

وقد بين تعالى في مواضع كثيرة أنه أهلك الذين كذبوا موسى ، وهم فرعون وقومه بالغرق .

كقوله (واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُون) وقوله تعالى (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ) .

وقوله تعالى (حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين) .

(**فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**) أي: إنكاري عليهم كفرهم، وتكذيبهم كيف حاله، كان أشد العقوبات، وأفظع المثلات، فمنهم من أغرقه، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أهلك بالريح العقيم، ومنهم من خسف به الأرض، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة، فليعتبر بهم هؤلاء المكذبون، أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم ليسوا خيرا منهم، ولا كتب لهم براءة في الكتب المنزلة من الله، وكم من المعذبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير .

قال الرازي : (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب ، أليس كان واقعاً قطعاً ؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة وبالكثرة قلة وبالحياة موتاً وبالعمارة خراباً ؟ ألست أعطيت الأنبياء جميع ما وعدتهم من النصرة على أعدائهم والتمكين لهم في الأرض.

فينبغي أن تكون عادتك يا محمد الصبر عليهم ، فإنه تعالى إنما يمهل للمصلحة فلا بد من الرضاء والتسليم ، وإن شق ذلك على القلب.

قال أبو السعود : أي فكان ذلك في غاية ما يكون من الهول والفظاعة.

الفوائد :

١. تسلية للنبي ﷺ .

٢. تسلية لكل داعية .

٣. دفاع الله عن نبيه ﷺ .

٤. تهديد لكفار قريش .

٥. دلالةٌ على أنَّ المغتَمَّ بالشَّيءِ قد يتسلَّى بأنْ يكونَ له في مُصيبتِه شَريكٌ .

٦. دَلالةٌ على أنَّ الإملاءَ للكافرينَ مَكْرٌ بهم واستِدراجٌ

(فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥)

[الحج : ٤٥] .

==========

(فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أهلكناها) أي : كم من قرية أهلكناها .

(وَهِيَ ظَالِمَةٌ) أي : مكذبة لرسلها .

والمراد بالظلم الشرك .

(فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) أي : خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف فهي مهدمة .

قال البقاعي : (خاوية) أي متهدمة ساقطة أي جدرانها .

وقال ابن عاشور : والعروش : جمع عَرش ، وهو السَقْف .

(وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ) أي : وكم من بئر عطلت فتركت لا يستقى منها لهلاك أهلها .

قال السعدي : أي وكم من بئر، قد كان يزدحم عليه الخلق، لشربهم، وشرب مواشيهم، ففقد أهله، وعدم منه الوارد والصادر .

قال ابن عاشور : والمعطلة التي عطل الانتفاع بها مع صلاحها للانتفاع ، أي هي نابعة بالماء وحولها وسائل السقي ولكنها لا يستقى منها لأن أهلها هلكوا.

(وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ) أي : وكم من قصر مشيد مرفوع البنيان أصبح خالياً بلا ساكن ، أليس في ذلك عبرة للمعتبر ؟

قال السعدي : أي وكم من قصر، تعب عليه أهله، فشيدوه، ورفعوه، وحصنوه، وزخرفوه، فحين جاءهم أمر الله، لم يغن عنهم شيئا، وأصبح خاليا من أهله، قد صاروا عبرة لمن اعتبر، ومثالا لمن فكر ونظر.

-**إذا قيل:** إنَّ قَولَه تعالى (فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) يدُلُّ على تَهَدُّمِ أبنِيَةِ أهلِها، وسُقوطِها، وقَولَه تعالى (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) يدُلُّ على بقاءِ أبنِيَتِها قائِمةً مَشيدَةً، فكيف الجَمعُ بينهما؟

فالجوابُ: أنَّ قُصورَ القُرى التي أهلَكَها اللهُ، وَقْتَ نُزولِ هذه الآيةِ منها ما هو مُتهَدِّمٌ، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، ومنها ما هو قائِمٌ باقٍ على بنائِه، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: وَقَصْرٍ مَشِيدٍ، ويدُلُّ على هذا الجَمعِ قولُه جَلَّ وعلا (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ) فصَرَّحَ في هذه الآيةِ بأنَّ منها قائِمًا، ومنها حَصيدًا؛ فالقائِمُ هو الذي لم يَتهَدَّمْ، والحَصيدُ هو الذي تَهَدَّمَ، وتفَرَّقَت أنقاضُه .

فائدة : ١

في هذه الآية يخبر تعالى أنه أهلك كثيراً من القرى بسبب كفرها وتكذيبها ، وقد ذكر الله تعالى ذلك في آيات كثيرة .

قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ).

وقال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً).

وقال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا).

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ).

فائدة : ٢

أن الله لا يهلك القرى حتى يرسل إليهم الرسل.

قال تعالى (ومَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً).

وقال تعالى (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ).

وقال تعالى (ومَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) .

فائدة : ٣

أن الله يقص خبر الأمم السابقة للعبرة والاتعاظ.

وقال تعالى (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا).

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)) .

[الحج : ٤٦] .

==========

(**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ**) أي : بأبدانهم وبفكرهم أيضاً ، ليعرفوا ما حلّ بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب؛ وهذا السفر مندوب إليه إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار من خلا من الأُمم وأهل الديار.

وهذا السير يشمل السير بالأبدان والسير بالقلوب، والسير بالقلوب: أن يقرأ ويتأمل ما وقع للأمم السابقة من العقوبات، وذلك بقراءة تاريخهم بما صح منها ، وأصح شيء ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والسير بالأقدام بأن ينظروا بأبصارهم آثار المكذبين كما في قوله تعالى (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ).

كما قال تعالى (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

وقال سُبحانَه (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) .

كما قال تعالى (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) وقال تعالى (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ).

قال العلماء : السَّيرُ في الأرضِ: إمَّا حِسِّيٌّ، أو معنويٌّ باعتبارِ سَماعِ أخبارها مِنَ الغيرِ، أو قراءتِها في الكُتُبِ؛ فقولُه: فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ: راجِعٌ للسيرِ الحِسيِّ، وقولُه: أَوْ آذَانٌ للسَّيرِ المعنويِّ .

(**فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**) آيات الله ويتأملون بها مواقع عبره .

(**أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**) أخبار الأمم الماضين، وأنباء القرون المعذبين، وإلا فمجرد نظر العين، وسماع الأذن، وسير البدن الخالي من التفكر والاعتبار، غير مفيد، ولا موصل إلى المطلوب .

(**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**) أي: لا تَعمى أبصارُ الكُفَّارِ؛ فأَعيُنُهم مُبصِرةٌ يَرَونَ بها المرئيَّاتِ، ولكِنَّ قُلوبَهم هي التي تَعمَى عن رُؤيةِ الحَقائِقِ وإدراكِها، والانتِفاعِ بها، فهذا هو العمَى المهلِكُ لصاحِبِه .

كما قال تعالى (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) .

قال ابنُ بَطَّال: إن الإنسان إذا كَمُل إيمانه، وكَثُر تفكُّره، كان الغالِبُ علَيْه الإشفاقَ والخَوْف.

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئٍ قط إلا علِم، وما علِم امرؤ قط إلا عمِل.

وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله حسن، والفكرةُ في نِعم الله أفضل العبادة.

وقال ابن الجوزي: همة المؤمن متعلقةٌ بالآخرة، فكل ما في الدنيا يحرّكه إلى ذكر الآخرة، ألا ترى أنه لو دخل أرباب الصنائع إلى دار معمورة رأيت البزاز ينظر إلى الفرش ويحزر قيمته، والنجار إلى السقف، والبناء إلى الحيطان، والحائك إلى النسيج المخيط.

والمؤمن إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر، وإن رأى مؤلماً ذكر العقاب، وإن سمع صوتاً فظيعاً ذكر نفخة الصور، وإن رأى الناس نياماً ذكر الموتى في القبور، وإن رأى لذة ذكر الجنة، فهمته متعلقة بما ثم، وذلك يشغله عن كل ما تم.

سئل أعرابي عن دليل على وجود الله فقال: سبحان الله! سماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذاتُ أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير!!

قال ابن القيم: أنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك .

الفوائد :

١-لأمر بالسير في الأرض للاعتبار ، سواء كان بالبصائر أو بالبصر.

٢-فضل الاعتبار وأنه مطلوب.

٣-قال ابن عاشور : وهذا شأن الأسفار أن تفيد المسافر ما لا تفيده الإقامة في الأوطان من اطلاع على أحوال الأقوام وخصائص البلدان واختلاف العادات ، فهي تفيد كل ذي همّة في شيء فوائدَ تزيد هِمتَه نفاذاً فيما تتوجه إليه وأعظم ذلك فوائد العبرة بأسباب النجاح والخسارة .

(**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)**) .

[الحج : ٤٧] .

==========

(**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ**) يقولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ أَيْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ الْمُلْحِدُونَ الْمُكَذِّبُونَ بِاللَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ واليوم الآخر .

قال أبو حيان : والضمير في (ويستعجلونك) لقريش ، وكان ﷺ يحذرهم نقمات الله ويوعدهم بذلك دنيا وآخرة وهم لا يصدقون بذلك ويستبعدون وقوعه ، فكان استعجالهم على سبيل الاستهزاء وأن ما توعدتنا به لا يقع وإنه لا بعث .

ودائماً الكفار يستعجلون العذاب استبعاداً منهم له.

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ).

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ).

وقال تعالى (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ).

وقال تعالى (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ).

وقال تعالى عن قوم هود (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

(**وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ**) أي : واللهُ لن يُخلِفَ ما وعَدَ به مِن ذلك، وهو واقِعٌ بهم حَتْمًا في وَقتِه المحَدَّدِ .

قال أبو حيان : وفي قوله (ولن يخلف الله وعده) أي إن ذلك واقع لا محالة ، لكن لوقوعه أجل لا يتعداه ، وأضاف الوعد إليه تعالى لأن رسوله ﷺ هو المخبر به عن الله تعالى.

وقال ابن عاشور : ولما كان استعجالهم إياه تعريضاً منهم بأنهم موقنون بأنه غير واقع أعقب بقوله : (ولن يخلف الله وعده) أي فالعذاب الموعود لهم واقع لا محالة لأنه وعدٌ من الله والله لا يخلف وعده.

وفيه تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لئلا يستبطئونه. (ابن عاشور)

وهَلَاكَ الْكُفَّارِ حُدِّدَ لَهُ أَجَلٌ مَعْدُودٌ ذَكَرَهُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ:

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ).

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ).

وَقَوْلِهِ (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ).

وَقَوْلِهِ (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ).

وَقَوْلِهِ (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ).

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ).

قال الشنقيطي : قوله (وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ) الظاهر أن المراد بالوعد هنا : هو ما أوعدهم به من العذاب الذي يستعجلون نزوله ، والمعنى : هو منجز ما وعدهم به من العذاب ، إذا جاء الوقت المحدد لذلك كما قال تعالى (وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) .

وبه تعلم أن الوعد يطلق في القرآن على الوعد بالشر.

(**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**) أي: هُم يَستَعجِلونكَ بالعذابِ، ولكنَّ اللهَ تعالى حليمٌ لا يَعجَلُ به؛ فإنَّ مِقدارَ ألْفِ سَنةٍ عِندَ خَلْقِه كيَومٍ واحدٍ عِندَه، فالطَّويلُ عِندَهم مِنَ الزَّمنِ قَصيرٌ عِندَه، وليس عذابُهم عِندَه ببعيدٍ، فلا بدَّ مِن وُقوعِه لا مَحالةَ، فهو على الانتقامِ قادرٌ، لا يَفوتُه شَيءٌ، ولا فَرْقَ بيْن وُقوعِ ما يَستَعجِلون به مِنَ العذابِ وتأخُّرِه في القُدرةِ،

أَيْ هُوَ تَعَالَى لَا يُعَجِّلُ، فَإِنَّ مِقْدَارَ أَلْفِ سَنَةٍ عِنْدَ خَلْقِهِ كَيَوْمٍ وَاحِدٍ عِنْدَهُ بِالنِّسْبَةِ إلى حلمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ وَإِنْ أَجَّلَ وَأَنْظَرَ وَأَمْلَى، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ .

الفوائد :

١. شدة تكذيب الكفار .

٢. أن الكفار يستعجلون العذاب تكذيباً واستهزاء .

٣. أن لهلاك الكفار موعد لا يتقدم ولا يتأخر .

٤. حكمة الله في تأخير العذاب عن الكفار .

(وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨)) .

[الحج : ٤٨] .

==========

(وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ) أي: وكَثيرٌ مِن القُرى أمهَلْتُ أهلَها، ولم أُعاجِلْهم بالعُقوبةِ، مع ظُلمِهم بالشِّركِ والعِصيانِ، ثُمَّ عاقَبْتُهم في الدُّنيا، ومَرجِعُهم في الآخرةِ إليَّ، فأُعَذِّبُهم فيها أيضًا؛ فلْيَحذَرْ هؤلاء الظَّالِمونَ مِن ذلك، ولا يَغتَرُّوا بإمهالِ اللهِ لهم .

قال الرازي : فالمراد وكم من قرية أخرت إهلاكهم مع استمرارهم على ظلمهم فاغتروا بذلك التأخير ثم أخذتهم بأن أنزلت العذاب بهم ، ومع ذلك فعذابهم مدخر إذا صاروا إلي .

كما قال تعالى (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) .

الفوائد :

١. أن الله يمهل ولا يهمل .

٢. أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة .

٣. أن الله أهلك كثيراً من القرى بظلمها .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)) .

[الحج : ٤٩- ٥١] .

==========

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ) أي : قل – أيها الرسول الكريم – للناس .

قال ابن عاشور : وافتتاحه بـ (قُل) للاهتمام به ، وافتتاح المقول بنداء الناس للفت ألبابهم إلى الكلام.

والمخاطَبون هم المشركون ، والغرض من خطابهم إعلامهم بأن تكذيبهم واستهزاءهم لا يَغيظ النبي ﷺ ولا يصدّه عن أداء رسالته ، ففي ذلك قمع لهم إذ كانوا يحسبون أنهم بتكذيبهم واستهزائهم يُملّونه فيترك دعوتهم ، وفيه تثبيت للنبيء وتسلية له فيما يلقاه منهم.

(إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) أي : إن وظيفتي أن أنذركم وأخوفكم من عقاب الله .

والآيات في هذا المعنى كثيرة : قال تعالى (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب) وقوله (إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ) وقوله (إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) وقوله (فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البلاغ) وقوله (إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) وقوله (تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) .

قال الرازي : فالمعنى أنه تعالى أمر رسوله بأن يديم لهم التخويف والإنذار ، وأن لا يصده ما يكون منهم من الاستعجال للعذاب على سبيل الهزؤ عن إدامة التخويف والإنذار ، وأن يقول لهم إنما بعثت للإنذار فاستهزاؤكم بذلك لا يمنعني منه.

قال البقاعي : (إنما أنا لكم نذير) أي وبشير ، وإنما طواه لأن المقام للتخويف ، ويلزم منه الأمن للمنتهى فتأتي البشارة ، ولأن النذارة هي المقصود الأعظم من الدعوة ، لأنه لا يقدم عليها إلا المؤيدون بروح من الله .

وقال أبو حيان : وذكر النذارة دون البشارة وإن كان التقسيم بعد ذلك يقتضيهما لأن الحديث مسوق للمشركين .

(**فَالَّذِينَ آمَنُوا**) بقلوبهم .

(**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) الزاكيات الطيبات من واجبات ومستحباب ، إخلاصاً ومتابعة .

قال الآلوسي : وأما وجه ذكر المؤمنين وثوابهم (فالذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) فالزيادة في إغاظة المشركين فهو بحسب المآل إنذار، ويجوز أن يقال: إن قوله سبحانه (فالذين ءامَنُواْ) تفصيل لمن نجع فيه الإنذار من الناس المشركين .

(**لَهُم مَّغْفِرَةٌ**) لذنوبهم .

(**وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**) في الجنة لا انقطاع معه ولا امتناع .

قال أبو السعود : (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) هي الجَنَّةُ. والكريمُ من كلِّ نوع ما يجمعُ فضائلَه ويحوزُ كمالاتِه.

(**وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ**) أي : بذلوا الجهد في إبطالها فسموها تارة سحراً وتارة شعراً وتارة أساطير الأولين.

وأصل السعي الإسراع في المشي ويطلق على الاصلاح والإفساد يقال : سعى في أمر فلان إذا أصلحه أو أفسده بسعيه فيه

قال الزجاج : أي ظانين أنهم يعجزوننا لأنهم ظنوا أن لا بعث ، وظنوا أن الله لا يقدر عليهم .

(**أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**) أي : الملازمون للنار المتأججة ملازمة المالك لما يملكه .

ففي هذه الآية وعد لمن أطاعه ووعيد لمن عصاه. والآيات بمثل ذلك في القرآن كثيرة كقوله تعالى (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم) وقوله (غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِي الطول) .

الفوائد :

١. أن الرسول مأمور أن يقول للناس إنما أنا نذير .
٢. أن الرسول مهمته التبشير والإنذار .
٣. أن الهداية بيد الله .
٤. فضل من آمن وعمل صالحاً بالمغفرة ودخول الجنة .
٥. لابد مع الإيمان العمل .
٦. أهمية أن يكون العمل صالحاً .
٧. التحذير من العمل أن يكون غير صالح .
٨. تهديد من سعى في تكذيب الله ورسله .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٤)) .

[الحج : ٥٢-٥٤] .

==========

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ...) قوله (إذا تمنى) **قيل** : إذا تلا وقرأ .

قال ابن الجوزي : وفي معنى "تمنى" قولان.

أحدهما : تلا ، قاله الأكثرون ، وأنشدوا :

تمنَّى كتابَ اللهِ أوّل ليلهِ ... وآخرَه لاقى حِمامَ المقادِرِ

وقال آخر :

تمنَّى كتابَ الله آخرَ ليلِه ... تمنِّيَ داودَ الزبورَ على رِسْلِ

والثاني : أنه من الأُمنية .

قال ابنُ القيم: والسَّلَفُ كُلُّهم على أنَّ المعنى: إذا تلا ألقَى الشَّيطانُ في تلاوتِه .

والمعنى على هذا :

أي: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا مُحَمَّدُ- مِن رَسولٍ ولا نبيٍّ إلا تمنى – أي : تلا وقرَأ - ألقَى الشَّيطانُ في قراءتِه الشُّبَهَ والوَساوِسَ؛ لِيَصُدَّ النَّاسَ عن اتِّباعِ ما يَقرَؤُه ويَتْلوه .

قال الشوكاني : فحاصل معنى الآية : أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك من دون أن يتكلم به رسول الله ﷺ ولا جرى على لسانه ، فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ، أي لا يهولنك ذلك ولا يحزنك ، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء .

قال الشنقيطي : الذي يَظهَرُ لنا أنَّه الصَّوابُ، وأنَّ القُرآنَ يدُلُّ عليه دَلالةً واضِحةً، وإن لم يَنتَبِهْ له مَن تكَلَّمَ على الآيةِ من المفَسِّرينَ: هو أنَّ ما يلقيه الشَّيطانُ في قراءةِ النبيِّ: الشكوكُ والوساوِسُ المانِعةُ من تصديقِها وقَبولِها، كإلقائِه عليهم أنَّها سِحرٌ أو شِعرٌ، أو أساطيرُ الأوَّلينَ، وأنَّها مُفتراةٌ على اللهِ ليست مُنزَّلةً مِن عنده. والدَّليلُ على هذا المعنى: أنَّ اللهَ بَيَّنَ أنَّ الحِكمةَ في الإلقاءِ المذكورِ امتِحانُ الخَلقِ؛ لأنَّه قال تعالى: لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، ثمَّ قال: وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ؛ فقَولُه: وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ الآيةَ، يدُلُّ على أنَّ الشَّيطانَ يُلقي عليهم أنَّ الذي يَقرَؤه النبيُّ ليس بحَقٍّ، فيُصَدِّقُه الأشقياءُ، ويكونُ ذلك فِتنةً لهم ، ويكَذِّبُه المؤمِنونَ الذين أوتُوا العِلمَ ، ويَعلَمونَ أنَّه الحَقُّ لا الكَذِبُ ، كما يزعم لهم الشَّيطانُ في إلقائِه ، فهذا الامتحانُ لا يُناسِبُ شَيئًا زاده الشَّيطانُ مِن نَفْسِه في القراءةِ ، والعِلمُ عندَ الله تعالى .

وقيل: تَمَنَّى في الآيةِ مِنَ التَّمَنِّي المعروف، وهو تمنّيه إسلامَ أمَّتِه وطاعتَهم لله ولرُسُلِه.

واختاره : الخازن، والقاسمي، وابن عاشور.

والمراد بإلقاء الشيطان في أمنيته: محاولته صرف الناس عن دعوة الحق، عن طريق إلقاء الأباطيل في نفوسهم، وتثبيتهم على ما هم فيه من ضلال.

وعلى هذا يكون المعنى : وما أرسلنا من قبلك- يا محمد- من رسول ولا نبي، إلا إذا تمنى هداية قومه إلى الدين الحق الذي جاءهم به من عند ربه، ألقى الشيطان الوساوس والشبهات في طريق أمنيته لكي لا تتحقق هذه الأمنية، بأن يوهم الشيطان الناس بأن هذا الرسول أو النبي ساحر أو مجنون، أو غير ذلك من الصفات القبيحة التي برأ الله- تعالى- منها رسله وأنبياءه.

قال تعالى (كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَواصَوْا بِهِ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ) .

والآية الكريمة على هذا التفسير واضحة المعنى، ويؤيدها الواقع، إذ أن كل رسول أو نبي بعثه الله تعالى كان حريصا على هداية قومه، وكان يتمنى أن يؤمنوا جميعا، بل إن الرسول ﷺ كاد يهلك نفسه هما وغما بسبب إصرار قومه على الكفر.

قال تعالى (فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً) .

إلا أن قوم كل رسول أو نبي منهم من آمن به. ومنهم من أعرض عنه بسبب إغراء الشيطان لهم، وإيهامهم بأن ما هم عليه من ضلال هو عين الهدى . (التفسير الوسيط)

تنبيه :

وقد رُوِيَ في سببِ نُزولِ هذه الآيةِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَرأَ بمكَّةَ: وَالنَّجْمِ ، فلمَّا بَلَغَ: أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ، أَلْقى الشَّيطانُ على لسانِه: تلك الغَرانيقُ [أي: الأصنامُ] العُلى، وإنَّ شَفاعتَهُنَّ لتُرتَجى! فقال المشركون: ما ذَكَرَ آلهتَنا بخَيرٍ قَبلَ اليَومِ! فسَجَد وسَجَدوا؛ فنزلتْ هذه الآيةُ.

قال إمام الأئمة ابن خزيمة : إن هذه القصة من وضع الزنادقة .

قال القاضي عياض في الشفاء : إن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه ، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً .

قال القرطبي عن هذه الروايةِ وغيرِها: الأحاديثُ المرويَّةُ في نزولِ هذه الآيةِ ليس منها شَيءٌ يَصِحُّ .

قال ابن الجوزي : قال العلماء المحققون : وهذا لا يصح ، لأن رسول الله ﷺ معصوم عن مثل هذا ، ولو صح ، كان المعنى أن بعض شياطين الإنس قال تلك الكلمات ، فإنهم كانوا إذا تلا لغطوا ، كما قال الله عز وجل (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه) .

وقال ابن كثير : قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح .

قال الشوكاني : لم يصح شيء من هذا ، ولا ثبت بوجه من الوجوه ، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه ، قال الله (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل . لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين) وقوله (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى) وقوله (وَلَوْلاَ أَن ثبتناك لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ) فنفى المقاربة للركون فضلاً عن الركون .

(**فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ**) أي: فيُذهِبُ اللهُ ويُزيلُ ما يُلقيه الشَّيطانُ مِن الباطِلِ في قراءةِ نَبيِّه، ولا يتأثَّرُ بباطِلِه المؤمِنونَ .

(**ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ**) أي : يُتقِنُها بالإحكامِ، فيُظهِرُ أنَّها وَحيٌ مُنَزَّلٌ منه بحَقٍّ، ولا يُؤَثِّرُ في ذلك محاولةُ الشيطانِ صَدَّ النَّاسِ عنها بإلقائِه المذكورِ .

(**وَاللَّهُ عَلِيمٌ**) بكل شيء لا تخفى عليه خافية .

(**حَكِيمٌ**) في أقواله وأفعاله .

(**لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**) هذا الحكمة في إلقاء الشيطان لشبهه وضلالته هي امتحان الناس .

والمعنى : فعل ما فعل سبحانه ليجعل ما يلقيه الشيطان من تلك الشبه في القلوب فتنة واختبارا وامتحانا، للذين في قلوبهم مرض، أي: شك وارتياب، وهم المنافقون، وللذين قست قلوبهم، وهم الكافرون المجاهرون بالجحود والعناد.

قال الشنقيطي: ومعنَى كونِه: فِتْنَةً لهم أنَّه سَبَبٌ لِتَمادِيهم فِي الضَّلالِ والكفرِ .

والمرض هو اعتلال الجسم، ومرض القلب خروجه عن صحته واعتداله، فهؤلاء قلوبهم مريضة، وهذا المرض الذي في قلوبهم هو مرض الشك والنفاق الناتج عن ضعف يقينهم وإيمانهم، وقد قال ﷺ في وصف المنافقين (مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة) رواه مسلم [العائرة: الحائرة].

وقد ذكر الله هذا المرض عن المنافقين في عدة آيات:

فقال تعالى (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ).

وقال تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ).

وقال تعالى (رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ).

قال ابن القيم: ومرض القلب نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغي، وكلاهما في القرآن.

قال تعالى في مرض الشبهة (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً)، وأما مرض الشهوات فقال تعالى (يا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً) فهذا مرض شهوة الزنا.

وقال عن مرض الشبهات: هو أصعبهما وأقتلهما للقلب.

(**وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ**) أي : ولأصحابِ القُلوبِ القاسيةِ التي لا تَلينُ للحقِّ، ولا تَرْجِعُ إلى الصَّوابِ، وهم المشركونَ .

كما قال تعالى (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) .

وقال سُبحانَه (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ) .

قال ابن عطية : والقاسية قلوبهم خواص منهم عتاة كأبي جهل والنضر وعقبة .

وفي هذا ذم قسوة القلب .

قال ابن القيم: ما ضربَ عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله.

خلقت النار لإذابة القلوب القاسية.

أبعد القلوب من الله القلب القاسي.

إذا قسا القلب قحطت العين.

قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل والنوم والكلام والمخالطة.

معنى قسوة القلب: غلظتها وشدتها بحيث لا ينفع فيها وعظ ولا تذكير.

قال القرطبي: القسوة: الصلابة والشدّة واليُبْس، وهي عبارة عن خلوّها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى.

وقد بين تعالى سبب قسوة القلب في آيات أخرى ومنها: نقض العهد، وطول الأمل.

قال تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً).

وقال تعالى في طول الأمل (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ).

وقد نهانا الله تعالى أن نتشبه بأهل الكتاب في قسوة قلوبهم كما في الآية السابقة، فوصف أهل الكتاب بالقسوة ونهانا عن التشبه بهم.

من أسباب قسوة القلب:

أولاً: نقض العهد مع الله.

قال تعالى (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً).

قال ابن عقيل يوماً في موعظته : يا من يجد في قلبه قسوة ، احذر أن تكون نقضت عهداً ، فإن الله يقول (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ...).

(**وَإِنَّ الظَّالِمِينَ**) من أهل الشرك والكفر والشك والنفاق .

(**لَفِي شِقَاقٍ**) أي : لفي مشاقة ومحادة ومخالفة لله ولدينه ورسوله ﷺ .

(**بَعِيدٍ**) كل البعد عن الموافقة والمتابعة .

قال ابن الجوزي : والشقاق : غاية العداوة.

(**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ**) أي: ولِيَعلَمَ الذين آتاهم اللهُ العِلمَ النَّافِعَ الذي يُفَرِّقونَ به بينَ الحَقِّ والباطِلِ أنَّ ما أنزَلَه اللهُ هو الحَقُّ لا غيرُه مِمَّا ألقاه الشَّيطانُ، فيُؤمِنوا بالقُرآنِ، ويَعمَلوا به، ويَزدادوا هُدًى .

قال الشوكاني : قوله (أَنَّهُ الحق مِن رَّبّكَ) أي: الحقّ النازل من عنده. وقيل: إن الضمير في (أنه) راجع إلى تمكين الشيطان من الإلقاء، لأنه مما جرت به عادته مع أنبيائه، ولكنه يردّ هذا قوله : (فَيُؤْمِنُواْ بِهِ) فإن المراد الإيمان بالقرآن، أي يثبتوا على الإيمان به.

(**فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ**) أي : فتخضع وتسكن وتطمئن إليه نفوسهم .

القلب المخبت : الذي ينتفع بالقرآن ويرق له .

(**وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا**) في أمور دينهم .

(**إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**) أي : طريق صحيح لا عوج به .

الفوائد :

١. هذه الآية تسلية للنبي ﷺ .

٢. إثبات الرسالات والنبوات .

٣. هذه الآية دليل على أن الرسول غير النبي ، وقد اختلف العلماء في التفريق بين النبي والرسول على أقوال:

الذي عليه جمهور العلماء أن النبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، أما الرسول فهو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه.

وهذا الوجه في التفريق عليه إشكالات:

قال الشنقيطي في أضواء البيان: ما اشتهر على ألسنة أهل العلم، من أن النَّبي هو من أوحى إليه وحي، ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النَّبي الذي أوحي إليه وأمر بتبليغ ما أوحى إليه غير صحيح، لأن قوله تعالى (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ) يدل على أن كلاً منهما مرسل، وأنهما مع ذلك بينهما تغاير. (أضواء البيان).

ومقصود كلامه – رحمه الله – أن الإرسال للنبي والرسول يقتضي التبليغ وعدم الكتمان.

وقد استبعد الأشقر في رسالته الرسل والرسالات (ص/١٤ – ١٥) هذا الوجه من المغايرة من عدة وجوه:

الأول: أن الله نص على أنه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل في قوله (وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيّ ...)

فإذا كان الفارق بينهما هو الأمر بالبلاغ، فالإرسال يقتضي من النبي البلاغ.

الثاني: أن ترك البلاغ كتمان لوحي الله تعالى، والله لا ينزل وحيه ليكتم ويدفن في صدر واحد من الناس، ثم يموت هذا العلم بموته.

الثالث: قول الرسول ﷺ (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد ...) متفق عليه.

فدل هذا على أن الأنبياء مأمورون بالبلاغ وأنهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم.

وقيل: الرسول: من جاء بشريعة مستقلة، والنبي: من جاء تابعاً لشريعة من سبقه، وهذا اختيار ابن تيمية في كتابه النبوات.

قال ابن تيمية: فالنبي هو الذي ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقي الشيطان في أمنيته) وقوله (من رسول ولا نبي) فذكر إرسالاً يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فان هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح، وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وقد كان قبله أنبياء كشيث وإدريس .عليهما السلام. وقبلهما آدم كان نبياً مكلماً.

وقال الأشقر في رسالته الرسل والرسالات: والتعريف المختار: أن الرسول من أوحي إليه بشرع جديد، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله.

٤. الإشارة إلى كونه ﷺ آخر الرسل .

٥. حرص الشيطان على تشكيك الناس فيما جاءت به الرسل والأنبياء والتلبيس عليهم .

٦. حفظ الله لوحيه ورسله .

٧. الحكمة من الابتلاء ، ليعلم الصادق من الكاذب .

٨. أن الابتلاء يكون فتنة وبلاء على مرضى القلوب والقاسية قلوبهم .

٩. الحذر من مرض القلب ، وهو الشهوات والشبهات .

١٠. ذم قسوة القلب .

١١. أن قسوة القلب من صفات الكفار .

١٢. فضل العلم وأهله ، والمراد بالعلم العلم النافع ، المقرون بالخشية والعمل .

(وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)) .

[الحج : ٥٥] .

==========

(وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ) أي : في القرآن .

(حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ) القيامة .

(**بَغْتَةً**) أي : فجأة .

(**أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ**) اختلف في المراد باليوم العقيم على قولين :

قيل : المراد باليوم العقيم يوم القيامة .

ورجحه : ابن كثير ، والشوكاني ، والشنقيطي ، والسعدي .

قال ابن كثير : قال عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُمَا: هُوَ يَوْمُ القيامة، لا ليل لَهُ، وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّحِيحُ، وَإِنْ كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ مِنْ جُمْلَةِ مَا أُوعِدُوا بِهِ لَكِنَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ .

وقال الشوكاني : هو يوم القيامة .

وقيل : يوم بدر .

ورجحه : ابنُ جرير، والواحدي ، وابن جزي، وابن عاشور.

قال البغوي : والأكثرون على أن اليوم العقيم يوم بدر، لأنه ذكر الساعة من قبل وهو يوم القيامة. وسمي يوم بدر عقيما

تنبيه : على القول الأول ، لما وضف يوم القيامة بالعقيم ؟

قال الرازي : أنه يوم القيامة ، وإنما وصف بالعقيم لوجوه :

أحدها : أنهم لا يرون فيه خيراً .

وثانيها : أنه لا ليل فيه فيستمر كاستمرار المرأة على تعطل الولادة .

وثالثها : أن كل ذات حمل تضع حملها في ذلك اليوم فكيف يحصل الحمل فيه ، وهذا القول أولى لأنه لا يجوز أن يقول الله تعالى (وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ) ويكون المراد يوم بدر ، لأن من المعلوم أنهم في مرية بعد يوم بدر .

على القول الثاني : أن يوم بدر ، لما وصف بالعقيم ؟

قال البغوي : والأكثرون على أن اليوم العقيم يوم بدر، لأنه ذكر الساعة من قبل وهو يوم القيامة. وسمي يوم بدر عقيما لأنه لم يكن في ذلك اليوم للكفار خير، كالريح العقيم التي لا تأتي بخير، سحاب ولا مطر

قال ابن الجوزي : على قول من قال : هو يوم بدر ، في تسميته بالعقيم ثلاثة أقوال.

أحدها : أنه لم يكن فيه للكفار بركة ولا خير ، قاله الضحاك.

والثاني : لأنهم لم يُنْظَروا فيه إلى الليل ، بل قُتلوا قبل المساء ، قاله ابن جريج.

والثالث : لأنه لا مثْل له في عِظَم أمره ، لقتال الملائكة فيه ، قاله يحيى بن سلام.

الفوائد :

١. شدة طغيان الكفار باستمرار الشك بالقرآن .

٢. وجوب الإيمان بالقرآن وأنه منزل من عند الله .

٣. سيندم الكفار حين لا ينفع الندم إذا جاءتهم الساعة أو عذاب الآخرة .

٤. إثبات الساعة .

٥. أن الساعة تأتي بغتة .

٦. أنه لا يعلم أحد متى الساعة .

(**الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧)**) .

[الحج : ٥٦-٥٧] .

==========

(**الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ**) يوم القيامة .

(**لِلَّهِ**) تعالى لا لغيره .

(**يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ**) بحكمه العدل وقضائه الفصل .

كَقَوْلِهِ (مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) .

وَقَوْلُهُ (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً) .

(**فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) أَيْ : آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَصَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَى مَا عَلِمُوا، وَتَوَافَقَ قُلُوبُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ .

(**فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**) أَيْ : لَهُمُ النَّعِيمُ الْمُقِيمُ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ وَلَا يَبِيدُ .

وهذا النعيم يشمل النعيم القلبي والنعيم الجسدي.

نعيم القلب والروح والبدن ، مما لا يصفه الواصفون ، ولا تدركه العقول .

النعيم: ما فيها من ألوان التنعم والنعم الحسية والمعنوية ونعيم البدن والقلب، كما قال تعالى (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، قال رسول الله ﷺ (قال تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) متفق عليه.

قال ﷺ (من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس، لا تبلى ثيابُه، ولا يفنى شبابه) رواه مسلم.

وقال ﷺ (يناد مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً) رواه مسلم.

من أعظم نعيم الجنة الخلود وعدم الموت.

من نعيم الجنة طهارة قلوبهم من الغل والحسد.

من نعيم الجنة وجود الأنهار التي تجري من تحتهم.

من نعيم أهل الجنة رؤيتهم لأهل النار وهم يعذبون، فيحمدون ربهم على توفيقه لهم.

وأعظم نعيم الجنة هو رؤية الله عز وجل.

(**وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**) أَيْ : كَفَرَتْ قُلُوبُهُمْ بِالْحَقِّ وَجَحَدُوا بِهِ، وَكَذَّبُوا بِهِ وَخَالَفُوا الرُّسُلَ وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِهِمْ .

وآيات الله كونية وشرعية:

الآية الكونية القدرية. (فهي مما نشاهده مما لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها).

وهي ما نصبه الله (جل وعلا) ليدل به خلقه على أنه الواحد الأحد المستحق للعبادة ، كالشمس والسماء والأرض ونحوها ، وكل ما في الكون من مخلوقات الله شاهد بكمال الله وقدرته وعزته وأنه المستحق للعبادة.

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي: لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون ، وهو المعبود وحده.

– الكفر بالآيات الكونية يكون بأمور: أن يجحد أن الخالق سبحانه خلقها فيدعي أن الذي خلقها ، أو أن يعتقد أن له شريكاً في خلقه ، أو أن له معيناً في خلقه.

الآيات الشرعية الدينية ، كآيات هذا القرآن العظيم. (لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله).

ومنه قوله تعالى (رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ) وقوله تعالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ).

وسميت آيات ، جمع آية ، لأنها علامة على صدق من جاء بها.

والكفر بالآيات الشرعية إما بجحودها، أو بتكذيبها، أو بالاستكبار والعناد ، كما قالوا عن القرآن: إنه سحر، وأساطير الأولين.

(**فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**) أَيْ : مُقَابَلَةُ اسْتِكْبَارِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ) أي صاغرين.

قال الرازي: اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجنبها آية في الوعد، وذلك لفوائد:

أحدها: ليظهر بذلك عدله سبحانه، لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان.

وثانيها: أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه.

وثالثها: أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته فيصير ذلك سبباً للعرفان.

الفوائد :

١. الملك يوم القيامة لله تعالى .

٢. إثبات يوم القيامة .

٣. أن يوم القيامة يحكم الله بين عباده ويفصل بينهم بالعدل .

٤. من أسباب دخول الجنة الإيمان والعمل الصالح .

٥. أهمية العمل في دخول الجنة .

٦. الحرص على أن يكون العمل صالحاً (إخلاصاً ومتابعة) .

٧. الجنة فيها كل النعيم .

٨. تهديد لكل كافر ومكذب بآيات الله بالعذاب المهين .

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩)) .

[الحج : ٥٨-٥٩] .

==========

(**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَطَلَبًا لِمَا عِنْدَهُ، وَتَرَكَ الْأَوْطَانَ وَالْأَهْلِينَ وَالْخِلَّانَ، وَفَارَقَ بِلَادَهُ فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَنُصْرَةً لِدِينِ اللَّهِ .

قال الرازي : واختلفوا فيمن أريد بذلك ، فقال بعضهم من هاجر إلى المدينة طالباً لنصرة الرسول ﷺ وتقرباً إلى الله تعالى ، وقال آخرون بل المراد من جاهد فخرج مع الرسول ﷺ أو في سراياه لنصرة الدين ولذلك ذكر القتل بعده ، ومنهم من حمله على الأمرين.

قال القرطبي : أفرد ذكر المهاجرين الذين ماتوا وقُتلوا تفضيلاً لهم وتشريفاً على سائر الموتى.

(**ثُمَّ قُتِلُوا**) أَيْ فِي الْجِهَادِ .

(**أَوْ مَاتُوا**) أَيْ حَتْفُ أَنْفِهِمْ أَيْ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ عَلَى فُرُشِهِمْ، فَقَدْ حَصَلُوا عَلَى الْأَجْرِ الْجَزِيلِ وَالثَّنَاءِ الْجَمِيلِ .

قال السعدي : هذه بشارة كبرى، لمن هاجر في سبيل الله، فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله، ابتغاء وجه الله، ونصرة لدين الله، فهذا قد وجب أجره على الله، سواء مات على فراشه، أو قتل مجاهدا في سبيل الله .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) .

(**لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا**) أَيْ : لَيُجْرِيَنَّ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِهِ وَرِزْقِهِ مِنَ الْجَنَّةِ مَا تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ .

قال ابن عاشور : تعويضاً لهم عَمَّا فاتوه في بلدهم من أهل ومال ، كما يُعوّض الحاكم العادل المظلوم فيعطيه أكثر ممَّا أُخِذ منه ؛ لذلك يقول سبحانه في موضع آخر (وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى الله وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموت فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلىَ الله . .) .

وقال : وَصْفُ الرِّزقِ بالحُسْنِ؛ لإفادةِ أنَّه يُرْضيهم بحيث لا يَتطلَّبون غيرَه؛ لأنَّه لا أحسَنَ منه .

قال الرازي : لا شبهة في أن الرزق الحسن هو نعيم الجنة .

وقال ابن الجوزي : وفي الرزق الحسن قولان.

أحدهما : أنه الحلال ، قاله ابن عباس.

والثاني : رزق الجنة ، قاله السدي.

قال السعدي : في البرزخ، وفي يوم القيامة بدخول الجنة الجامعة للروح والريحان، والحسن والإحسان، ونعيم القلب والبدن، ويحتمل أن المعنى أن المهاجر في سبيل الله، قد تكفل برزقه في الدنيا، رزقا واسعاً حسناً، سواءً علم الله منه أنه يموت على فراشه، أو يقتل شهيداً، فكلهم مضمون له الرزق، فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله، سيفتقر ويحتاج، فإن رازقه هو خير الرازقين، وقد وقع كما أخبر، فإن المهاجرين السابقين، تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم، نصرة لدين الله، فلم يلبثوا إلا يسيرا، حتى فتح الله عليهم البلاد، ومكنهم من العباد فاجتبوا من أموالها، ما كانوا به من أغنى الناس .

قال تعالى (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) .

وقال سُبحانَه (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) .

وقال تبارك وتعالى (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) .

وعن سَلمانَ الفارسيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ (رِباطُ يَومٍ ولَيلةٍ خَيرٌ مِن صِيامِ شَهرٍ وقِيامِه، وإنْ مات جرى عليه عَمَلُه الذي كان يَعمَلُه، وأُجرِيَ عليه رِزقُه، وأَمِنَ الفَتَّانَ) .

(**وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**) أي: وإنَّ اللهَ لَهُو أفضَلُ مَن يَرزُقُ عِبادَه، ويُعطيهم مِن فَضْلِ .

قال البقاعي: (لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) يَرزُقُ الخَلقَ عامَّةً؛ البَرَّ منهم والفاجِرَ، فكيف بمَن هاجَرَ إليه؟! ويُعطي عطاءً لا يَدخُلُه عَدٌّ، ولا يَحويه حَدٌّ .

قال بعض العلماء : فإنَّه يرزق بغير حسابٍ مع أنَّ ما يرزقه لا يقدِرُ عليه أحدٌ غيرُه .

(**لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ**) أي : الجنة .

كمَا قَالَ تَعَالَى (فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ) فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ الرَّاحَةُ والرزق وجنة النعيم .

كَمَا قَالَ هَاهُنَا (لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً ثُمَّ قَالَ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ) .

(**وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ**) بكل شيء ، لا تخفى عليه خافية .

(**حَلِيمٌ**) الحليم: هو الذي لا يعاجل من عصاه بالعقوبة.

قال الطبري: أي أنه ذو أناة، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة.

قال ابن القيم:

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان.

– الآثار المرتبة على معرفتنا بهذا الاسم:

أولاً: محبة الله والحياء منه، حيث إن حلمه العظيم اقتضى الصبر على عباده العصاة، وعدم الاستعجال في عقوبتهم لعلهم يتوبون.

ثانياً: فتح باب الرجاء وعدم اليأس من رحمة الله تعالى والمبادرة إلى التوبة والإنابة عن الذنوب مهما عظمت.

ثالثاً: مجاهدة النفس بالتخلق بهذا الخلق الكريم ألا وهو صفة (الحلم) فهو سبحانه (حليم) يحب من عباده الحلماء.

وقد أثنى الله على خليله ونبيه إبراهيم عليه السلام بقوله (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ).

وجعل من صفات نبيه إسماعيل الحلم وذلك بقوله (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ).

وجاء في الحديث في مدح هذه الصفة، في قوله ﷺ لأج عبد القيس (إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة) رواه مسلم.

فائدة : ١

في هذه الآية فضل الهجرة في سبيل الله .

أولاً: أنه الله يعوضه مراغما وسعة.

قال تعالى (وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً).

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) هذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن يه.

فمن هاجر في سبيل الله: ويكون في سبيل الله بشرطين: الهجرة لله إخلاصاً لا لهدف آخر، ويكون متابعاً للرسول ﷺ (يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا) قيل: المراغم التحول من أرض إلى أرض، وقيل: متزحزحاً عما يكره.

قال ابن كثير: وهذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه.

أن الله يخلفه.

قال تعالى (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً).

ينالون رحمة الله.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيم).

قال السعدي: هذه الأعمال الثلاثة، هي عنوان السعادة، وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان من الربح والخسران، فأما الإيمان فلا تسأل عن فضيلته ... ، وأما الهجرة فهي مفارقة المحبوب والمألوف لرضا الله تعالى، فيترك المهاجر وطنه وأمواله وأهله وخلانه تقربًا إلى الله ونصرة لدينة، وأما الجهاد فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله وقمع دين الشيطان. وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه أفضل الجزاء. فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجين رحمة الله؛ لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة.

تكفير للسيئات ودخول الجنان.

قال تعالى (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأكَفّرَنَّ عَنْهُمْ سَيّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ ثَوَاباً مّن عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ).

سادساً: من فضلها أنّها تدحر الشّيطان الرّجيم، حتّى قرنها النبيّ ﷺ بالإسلام والجهاد في سبيل الله تعالى.

فائدة : ٢

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه .

فائدة : ٣

يجب أن تكون الهجرة خالصة لوجه الله .

فائدة : ٤

يجب طلب الرزق من الله .

فائدة : ٥

إثبات صفة العلم الواسع لله تعالى .

فائدة : ٦

إثبات صفة الحلم الواسع لله تعالى ، وأن الله لا يعاجل من عصاه بالعقوبة .

(ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠))

[الحج : ٦٠] .

==========

(ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ) أي : ومن جازى الظالم بمثل ما ظلمه .

(ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ) أي : ثم اعتدى الظالم عليه ثانياً .

(لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ) أي : لينصرن الله ذلك المظلوم .

(إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوّ) أي : من صفته عز وجل العفو والتجاوز مع تمام قدرته على الانتقام كما قال تعالى (فإن الله كان عفواً قديراً).

(غَفُورٌ) أي : ذو المغفرة الواسعة .

الفوائد :

١. جواز رد الظلم والاعتداء بمثله .

٢. وعد الله لمن استوفى حقه من ظالمه ثم عاد ظالمه فاعتدى عليه ، بنصره تعالى له .

٣. إثبات اسم العفو لله المتضمن لصفة العفو .

٤. إثبات اسم الغفور لله مع صفة المغفرة الواسعة .

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)) .

[الحج : ٦١-٦٢] .

==========

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) أي: يأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة، ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء.

قال السعدي : أي تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضياء والنور والشمس والظل والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة على قدرة الله وعظمته وحكمته ورحمته .

قال تعالى (بولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ).

وقال تعالى (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

وقال تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ).

(وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ) سميع أقوال عباده .

(بَصِيرٌ) بأحوال عباده .

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) أَيِ : الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ، لِأَنَّهُ ذُو السُّلْطَانِ الْعَظِيمِ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، ذَلِيلٌ لَدَيْهِ .

(وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ) أيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ، وَكُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِهِ تَعَالَى .

(هُوَ الْبَاطِلُ) لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا.

(وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ) العلو المطلق .

(الْكَبِيرُ) على كل شيء .

الفوائد :

١. تمام قدرة الله في كونه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل.

٢. إثبات حكمة الله تعالى.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣)) .

[الحج : ٦٣] .

==========

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء) أي: أنزل من السماء مطراً عذباً فراتاً أنزله سبحانه بقدرته، فأخرج بذلك المطر أنواع الثمر والفواكه والخضار.

والمراد بالسماء هنا العلو ، وذلك أن السماء يُطلق على معنيين: المعنى الأول: العلو ، كقوله تعالى (أنزل من السماء ماء) المراد بالسماء هنا العلو ، لأن المطر ليس ينزل من السماء السقف ، بل ينزل من العلو ، المعنى الثاني: المراد بالسماء السقف كما في قوله تعالى (وجعلنا السماء سقفاً). (والسماء بناء).

(**فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً**) أي : خضراء بعد يباسها .

كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ).

وقال تعالى (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا).

وقال تعالى (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ).

(**إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ**) اسم من أسماء الله تعالى.

ينتظم هذا الاسم في ثلاثة معاني:

أولاً: اللطيف: بعباده الرفيق بهم الذي يوصل إليهم مصالحهم بالطرق الخفية، التي لا يشعر بها العبد ، ولا يسعى فيها كقوله – سبحانه (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيز).

ثانياً: اللطيف: الذي لطف علمه ودق حتى أحاط بالخفيات من الأمور ، فمن دقة علمه وعظيم إحاطته بخفي ودقيق المعلومات أنه يرى النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء.

ثالثاً: الذي لطف عن أن يحاط به أو يدرك بالكُنه (بالحقيقة) والكيفية، يقول تعالى: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ. وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) فقد أحاط سبحانه بجميع الموجودات، ولم يحط به علماً أحد من خلقه، وإن علموا شيئاً من أسمائه وصفاته، مما تفضل عليهم بتعليمهم إياه، إلا أنهم لم يعلموا حقائقها، ولا كنه ذاته العلية تعالى وتعاظم سبحانه.

قال السعدي: اللطيف: الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه، من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى "الخبير" وبمعنى "الرؤوف.

الآثار المترتبة على الإيمان بهذا الاسم:

أولاً: محبة الله.

ثانياً: التوكل على الله تعالى.

ثالثاً: حسن الظن بالله تعالى.

رابعاً: الطمأنينة والسكينة التي يسكبها هذا الاسم الكريم في قلب المؤمن.

خامساً: الرضا بما يختاره سبحانه وتعالى.

(**خَبِيرٌ**) اسم من أسماء الله ، ومعناه العليم ببواطن الأمور (المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها) المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور.

قال ابن عاشور: الخبير العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة، والظاهرة والخفية.

الآثار المترتبة على معرفتنا لهذا الاسم:

أولاً: يجب على الإنسان أن يحذر من كتم النفاق أو الحسد أو غيرها من أمراض القلوب، لأن الله مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية.

ولذلك أمرنا سبحانه أن نتقيه ونعمل بما يحب ، وأن نبتعد عن كل ما يسخطه ويغضبه ، فقال تعالى (وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً).

وقال تعالى (واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون).

وقال سبحانه (وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً).

ثانياً: وجوب مراقبة الله تعالى.

ثالثاً: أن الله خبير بأحوال عباده ، بصير بمن يستحق الهداية منهم ممن لا يستحقها ، بصير بمن يصلح حاله بالغنى والمال ، وبمن يفسد حاله بذلك (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ).

رابعاً: اليقين بأن الله هو الخبير العالم ببواطن الأمور وخفياتها، عالم بما كان وما يكون وما سيكون وما لم يكن كيف كان سيكون .. ، لا يفوته من العلم شيء وان كان صغيراً سراً دقيقاً ، وهذا لله وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه.

الفوائد :

١. رحمة الله بإنزال المطر .

٢. أن إنزال المطر آية من آيات الله ينبغي على المسلم أن يتأملها .

٣. من آيات الله الدالة على قدرته العظيمة واستحقاقه العبودية حياة الأرض بالمطر بعد موتها .

٤. من لطف الله بعباده نزول المطر .

٥. أن الله خبير بكل شيء لا تخفى عليه خافية .

٦. الحذر من كتم النفاق أو الحسد أو غيرها من أمراض القلوب فإنه خبير بما في القلوب .

٧. إثبات اسمين من أسماء : اللطيف ، الخبير .

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤)) .

[الحج : ٦٤] .

==========

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) أي: كل ما في السماوات والأرض له سبحانه وتعالى خلقاً وملكاً وتدبيراً.

وقال ابن كثير: إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه، وتحت قهره وسلطانه.

وقال أبو بكر الجزائري: خلقاً وملكاً وتصرفاً.

وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على هذا العموم:

قال تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ).

وقال تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً).

وقال تعالى (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ).

وهذه الجملة تؤيد تفرده سبحانه بالألوهية، وذلك من جانبين:

الأول: حيث إن الجميع عبيد له جل جلاله، وليس للعبد أن يعبد غير مالكه، أو يُشرِك غيره معه في العبادة، وقد نهاه عن ذلك.

الثاني: وحيث إن الجميع عبيد له، فكيف يُعبد مملوك – كائناً من كان – ويُترك المالك، أو يُشرَك مملوك في العبادة مع المالك، وقد نهى عن ذلك.

والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد فوائد :

الفائدة الأولى: الرضا بقضاء الله، وأن الله لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء ..

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ).

ويدل لذلك أيضاً ما بيّنه النبي ﷺ لابنته التي أشرف ابنها على الموت، حينما أرسلت إليه ليأتي، فأرسل يقرأ السلام ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب).

الفائدة الثانية: الرضا بشرعه وقبوله والقيام به، لأنك ملكه.

الفائدة الثالثة: أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكاً لنا بل هو ملك لله، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار، كما قال تعالى (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ).

وقال ﷺ (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ..) رواه مسلم.

(**وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ**) الذي له الغنى الكامل .

فالله غني عن كل ما سواه ، غني في نفسه لكثرة ما عنده ، غني عن خلقه ، كما قال تعالى (فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) له ملك السموات والأرض ، وخزائن السموات والأرض كلها بيده ، كما قال تعالى (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) ، فخزائنه عز وجل ملأ ، لا يغيضها كثرة الإنفاق ، وليس بحاجة إلى خلقه ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، وكل شيء فقير إليه.

قال ابن القيم: هو الغني بذاته الذي كل ما سواه محتاج إليه ، وليس به حاجة إلى أحد.

وقال السعدي: هو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه، والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقاً قادراً رازقاً محسناً فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه غنى عاماً.

قال: ومن كمال غناه: أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا شريكاً في الملك ، ولا ولياً من الذل.

وقال الخطابي: الغني: هو الذي استغنى عن الخلق وعن نصرتهم وتأييدهم لملكه، فليست به حاجة إليهم، وهم إليه فقراء محتاجون.

– فغنى الله يتضمن شيئين: الأول: الغنى الذاتي ، لكثرة ما يملكه ، إذ كل شيء ملكه ، والثاني: الغنى عن الغير ، فلا يحتاج إلى أحد وغيره محتاج إليه.

(**الْحَمِيدُ**) اسم من أسماء الله، قال ابن جرير: أي محمود عند خلقه بما أولاهم من نعمه، وبسط لهم من فضله.

قال الخطابي: الحميد: هو المحمود الذي استحق الحمد بأفعاله.

وقال ابن كثير: أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقال السعدي: وأما الحميد فهو من أسماء الله تعالى الجليلة الدال على أنه [هو] المستحق لكل حمد ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النِّعم الجزال، فهو المحمود على كل حال.

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الصحيح أنها بمعنى المحمود والحامد، فالله سبحانه حامدٌ من يستحق الحمد، وما أكثر الثناء على من يستحقون الثناء في كتاب الله، وهو كذلك محمود على كمال صفاته، وتمام إنعامه.

– وغنى الله مقرون بحمده كما في هذه الآية، وقال تعالى في آية أخرى (الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) فهو غني يحمد على غناه، لأنه يجود به على غيره.

فالله ذو الغنى الواسع. كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).

وقال تعالى (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).

وقال تعالى (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).

قال الشيخ ابن عثيمين: وليس كل غني يحمد على غناه، فالغني البخيل كالفقير تماماً، بل أردأ من الفقير وأسوأ حالاً، لأن الغني يذم، والفقير لا يذم.

الفوائد :

١. إثبات الغنى المطلق لله تعالى.

٢. طلب الغنى من الله تعالى.

٣. ذم طلب الغنى من غير الله تعالى.

٤. فقر المخلوق وحاجته.

٥. إثبات اسمين من أسماء الله : الغني والحميد .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥)) .

[الحج : ٦٥] .

==========

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ) أَيْ : مِنْ حَيَوَانٍ وَجَمَادٍ وَزُرُوعٍ وَثِمَارٍ .

كَمَا قَالَ (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) أَيْ مِنْ إِحْسَانِهِ وَفَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ

والتسخيرُ: التذليلُ. فقد سَخَّرَ الشمسَ لمنافعِ هذا الخَلْقِ؛ ولأنها آيةٌ عُظْمَى كما قال (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا) يُطْلِعُهَا في كُلِّ يومٍ، ويسيرها بحسابٍ معلومٍ طرقها وسيرها بتسخيرِ رَبِّ العالمينَ دائبة. وكذلك سَخَّرَ القمرَ على سَيْرِهِ المعتادِ، وحسابِه المعروفِ، نعرفُ بهما عددَ السنين والشهورِ والحسابَ، وكذلك سَخَّرَ النجومَ ليهتديَ بها خَلْقُهُ، وليزينَ بها السماءَ، ويطردَ بها الشياطينَ. فهذه المخلوقاتُ العظامُ العلويةُ سَخَّرَهَا خالقُ السماواتِ والأرضِ للاعتبارِ بها، ولمنافعِ خَلْقِهِ منها.

(وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) أي: وذلَّل لكم السُّفُنَ تجري في البِحارِ بقُدرتِه وتَيسيرِه، فتَحمِلُكم وتَحمِلُ بَضائِعَكم مِن مَوضِعٍ إلى آخَرَ .

قال ابن كثير (بأمره) أَيْ بِتَسْخِيرِهِ وَتَسْيِيرِهِ، أَيْ فِي الْبَحْرِ الْعَجَاجِ وَتَلَاطُمِ الْأَمْوَاجِ تَجْرِي الْفُلْكُ بِأَهْلِهَا بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَرِفْقٍ وَتُؤَدَةٍ فَيَحْمِلُونَ فِيهَا مَا شَاءُوا مِنْ تِجَائِرَ وَبَضَائِعَ وَمَنَافِعَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَقُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ، وَيَأْتُونَ بِمَا عِنْدَ أُولَئِكَ إِلَى هَؤُلَاءِ، كَمَا ذَهَبُوا بِمَا عِنْدَ هَؤُلَاءِ إِلَى أُولَئِكَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَيَطْلُبُونَهُ وَيُرِيدُونَهُ .

وقد تكرر في القرآن الامتنان بهذه النعمة أيضاً.

كقوله تعالى (والفلك التي تَجْرِي فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس).

وقوله تعالى (وَتَرَى الفلك فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

وقوله تعالى (الله الذي سَخَّرَ لَكُمُ البحر لِتَجْرِيَ الفلك فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

(**وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**) أَيْ لَوْ شَاءَ لَأَذِنَ لِلسَّمَاءِ فَسَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ فَهَلَكَ مَنْ فِيهَا، وَلَكِنْ مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ .

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ) .

(**إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**) أَيْ مَعَ ظُلْمِهِمْ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ) .

الفوائد :

١. سعة رحمة الله بعباده .

٢. رحمة الله بعباده أن سخر لهم كل ما في الأرض .

٣. من رحمة الله تسخير السفن تجري في البحار .

٤. أن الله يذكر عباده بهذه النعم لعلهم يشكرون ويتعظون.

٥. من أعظم آيات البحر السفن الكبيرة التي تجري فيه بأمر الله.

٦. رحمة الله بتسهيل الرزق عن طريق البحر.

٧. بَيانُ قُدْرَةِ الله عز وجل على إِمْساكِ السماء أن تقع على الأرض . فهذه الأَجْرامُ العَظيمَة أَمْسَكَها الله تعالى بقُدْرَته بدون معاناةٍ وبدون تَعَبٍ وإِنَّما يقولُ للشَّيْء: (كن) فيكونُ، قال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوب) وقال الله تعالى (ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) .

٨. أَنَّ السَّمَواتِ والأَرْضَ مَخْلوقتانِ من جُمْلَة المخْلوقاتِ، مُسَخَّرتانِ بأَمْرِ الله .

٩. هذه الآيةُ تدُلُّ دَلالةً قاطِعةً لا تَقبَلُ الشَّكَّ على أَنَّ السَّمَواتِ أجرامٌ محسوسةٌ حَقيقيَّةٌ .

١٠. عظيم قدرة الله .

١١. رحمة الله ورأفته بعباده .

١٢. إثبات اسمين من أسماء الله : الرؤوف والرحيم .

(وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)) .

[الحج : ٦٦] .

==========

(**وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ**) أَيْ : خَلَقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا يُذْكَرُ، فَأَوْجَدَكُمْ .

(**ثُمَّ يُمِيتُكُمْ**) عند انقضاء آجالكم .

(**ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**) أي : يوم القيامة .

(**إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ**) أي : جحود .

كما قال تعالى (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ) أي: كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره.

(وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ) أي: قد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود.

(ثُمَّ يُمِيتُكُمْ) أي: ثم يميتكم عند استكمال آجالكم.

(ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) حين يبعثكم.

وكما قال تعالى (فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ولكنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ) وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم.

قال السعدي: أي هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميتكم، ثم يبعثكم، ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويخضع ويسجد.

قال الخازن: والحكمة في وصف الله سبحانه وتعالى في هذا المقام بهذه الصفة: أن المراد أن الذي يستحق العبادة أعبده أنا وأنتم هو الذي خلقكم أولاً ولم تكونوا شيئاً ثم يميتكم ثانياً ثم يحييكم بعد الموت ثالثاً، فاكتفى بذكر الوفاة تنبيهاً على الباقي.

وقيل: لما كان الموت أشد الأشياء على النفس ذكر في هذا المقام ليكون أقوى في الزجر والردع.

وقيل إنهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذي هو قادر على إهلاككم ونصري عليكم.

– وقال ابن عطية: ... ثم صرح بمعبوده وخص من أوصافه (الذي يتوفاكم) لما فيها من التذكير للموت وقرع النفوس به، والمصير إلى الله بعده والفقد للأصنام التي كانوا يعتقدونها ضارة ونافعة.

وكما قال تعالى (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) .

الفوائد :

١. أن المحيي هو الله .

٢. أن الذي يوجد هو من يستحق العبادة .

٣. إثبات الموت .

كما قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ) وقال تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ).

٤. إثبات البعث.

٥. إثبات الجزاء والحساب.

٦. فيه الاستعداد ليوم الحساب بالإكثار من الأعمال الصالحة التي تنجيه من كرب يوم القيامة.

٧. أن المرجع إلى الله تعالى، كما قال تعالى (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ) وقال تعالى (وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ).وقال تعالى (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) وقال تعالى (اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

٨. ذم كفر النعمة وجحدها .

(**لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩)**) .

[الحج : ٦٧ – ٦٩] .

==========

(**لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا**) أي : لكل نبي من الأنبياء وأمة من الأمم السابقين وضعنا لهم شريعة ومتعبداً ومنهاجاً .

(**هُمْ نَاسِكُوهُ**) أي : هم عاملون به أي بذلك الشرع .

(**فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ**) أي : لا ينازعك أحدٌ من المشركين فيما شرعتُ لك ولأمتك فقد كانت الشرائع في كل عصر وزمان، وهو نهيٌ يراد به النفي أي لا ينبغي منازعةُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن الحق قد ظهر بحيث لا يسع النزاع فيه .

(**وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ**) أي : وادْعُ –يا مُحمَّدُ– إلى عبادةِ رَبّك وَحْدَه، والإيمانِ به، واتِّباعِ شَريعَتِه

(**إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ**) أَيْ : طَرِيقٍ وَاضِحٍ مُسْتَقِيمٍ مُوصِلٍ إِلَى المقصود، وهذا كَقَوْلِهِ (وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ) .

(**وَإِنْ جَادَلُوكَ**) أي : وإن خاصموك بعد ظهور الحق ، وقيام الحجة عليهم .

(**فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ**) تهديد شديد ، ووعيد أكيد .

أي: وإنْ جادَلَك كُفَّارُ قَومِك –يا مُحمَّدُ– فقُلْ لهم: اللهُ أعلَمُ بما تَعمَلونَه مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ، وهو مُجازيكم على ذلك، ففَوِّضْ أمْرَهم إلى اللهِ، وأعرِضْ عنهم، ولا تُجادِلْهم .

كما قال تعالى (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) .

وقال سُبحانَه وتعالى (هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) .

وفي هذا فضل الدعوة إلى الله ، فمن فضائل الدعوة والدلالة على الخير:

أولاً: أن له مثل أجر فاعله.

لقوله ﷺ (من دل على خير فله مثل أجر فاعله) .

وللحديث (مَنْ دَعَا إِلَى هُدَىً، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَه ...).

ثانياً: استجابة لأمر الله.

لقوله تعالى (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ).

ثالثاً: استجابة لأمر الرسول الله ﷺ بالتبليغ.

قال ﷺ (بلغوا عني ولو آية) رواه البخاري.

والمبلغ لكلام النبي ﷺ وهديه، دعا له النبي ﷺ بنضارة الوجه في قوله (نضر الله امرءاً سمع شيئاً فبلغه كما سمع فرُبَّ مبلغٍ أوعى من سامع) رواه الترمذي.

رابعاً: سبب للفلاح.

قال تعالى (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

خامساً: أنها أفضل الأعمال وأحسن الأقوال .

قال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً).

قال السعدي: هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر أي: لا أحد أحسن قولاً. أي: كلاماً وطريقة، وحالة (ممن دعا إلى الله) بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة الله، بجميع أنواعها، والحث عليها، وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه، خصوصاً من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

سادساً: الدعوة إلى الخير مهمة سيد البشر.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا).

سابعاً: الداعية ينجو من عقوبة الدنيا بالظالمين.

قال تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ).

ثامناً: أنها سبب للفوز بخيرية الأمة.

قال تعالى (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ).

قال ابن كثير: فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها ، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله (كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُون).

تاسعاً: أن فيها تهذيب للنفوس وتزكيةٌ لها.

كما قال تعالى في الحكمة من إرسال نبيه ﷺ (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ...) إذن يجب أن نعلم أن من أعظم واجبات الدعاة تزكية النفوس وتربيتها على المعاني الإيمانية والتربوية التي جاءت في الشريعة الإسلامية.

عاشراً: أنها سبب لثناء الرب عز وجل واستغفار الملائكة وسائر المخلوقات.

قال ﷺ (إن الله و ملائكته حتى النملة في جحرها و حتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير).

قال العلماء: الصلاة من الله تعني (الثناء) ومن الملائكة وغيرهم من المخلوقات تعني (الاستغفار) ، وما أعجب هذا الحديث لمن تأمله ، أن تفوز بثناء الرب تعالى ، واستغفار الملائكة الذين لا يعلم عددهم إلا الله تعالى.

الحادي عشر: أنها سبب للفوز بدعوة النبي ﷺ .

حيث قال ﷺ (نضر الله امرءاً سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن.

(**اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**) أي : يفصل في الآخرة بين المؤمنين والكافرين بحكمه العدل .

الفوائد :

١. أن الله جعل لكل أمة منسكاً ومتعبداً .

٢. أن النبي ﷺ بعث بشريعة وقامت الأدلة والبراهين على صدقه فيجب اتباعه .

٣. أمر الله لنبيه بالاستمرار على شريعته .

٤. تهديد لكل معاند ومكذب .

٥. أن الطريق الذي عليه النبي طريق واضح مستقيم لا يضل عنه إلا جاحد معاند .

٦. إثبات القيامة وأن فيها يكون الفصل بين العباد .

٧. تهديد الكفار بيوم الميعاد .

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠)) .

[الحج : ٧٠] .

==========

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ) يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ، وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا فِي السموات وَمَا فِي الْأَرْضِ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ، وَأَنَّهُ تَعَالَى عَلِمَ الْكَائِنَاتِ كُلَّهَا قَبْلَ وُجُودِهَا .

(إِنَّ ذَلِكَ) الذي يجري في السماوات والأرض كائن وثابت .

(فِي كِتَابٍ) هو اللوح المحفوظ المشتمل على جميع أحوال الخلق .

(إِنَّ ذَلِكَ) الذي ذكرناه لك .

قيل : الإشارةُ بـ ذَلِكَ إلى كُتبِ المعلوماتِ في كتابٍ.

ورجحه : ابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زمنين، والرازي، واستظهرَه ابنُ جزي.

قال ابن جرير : وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ : إِنَّ كِتَابَ الْقَلَمِ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا هُوَ كَائِنٌ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، يَعْنِي : هَيِّنٌ ، وَهَذَا الْقَوْلُ الثَّانِي أَوْلَى بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ .

وقال ابن جزي : يحتمل أن تكون الإشارة إلى كتْب المعلومات في الكتاب ، أو إلى الحكم في الاختلاف ، والأول أظهر .

وقيل: المراد إنَّ ذَلِكَ أي: علمَه بجميعِ ذلك.

ورجحه : الثعلبيُّ، والبغوي، والنسفي.

قال أبو حيان : والإشارة بقوله (إن ذلك على الله يسير) قيل : إلى الحكم السابق ، والظاهر أنه إشارة إلى حصر المخلوقات تحت علمه وإحاطته.

وقال أبو السعود : (إنَّ ذلك) أي ما ذُكر من العلمِ والإحاطةِ به وإثباتِه في اللَّوحِ أو الحكم بينكم .

وممن جمع بين المعنيين السابقين: السعديُّ .

(عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) هيّن ، لأنه سبحانه له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

فائدة : ١

في الآية عموم علم الله تعالى بكل شيء .

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ) يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماوات والأرض، ولا يخفى عليه شيء من ذلك.

فالله تعالى يعلم كل شيء ، يشمل الجزئيات والكليات.

قال تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً).

وقال تعالى (عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

ويعلم سبحانه الماضي والمستقبل.

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ).

(ما بين أيديهم) الحاضر والمستقبل (وما خلفهم) الماضي.

ويعلم الخفايا وما في الصدور:

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

وقال تعالى (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ). وقال تعالى (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ).

وليس شيء يصل إلى الأرض أو يصعد من الأرض إلى السماء إلا قد أحاط الله به علماً.

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ).

ويعلم الأمور التي لن تكون كيف تكون لو كانت.

كما قال تعالى عن الكفار حين يكونون في النار (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ).

وقال تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً، لأن الله هو الذي ثبطهم عنها بحكمته بقوله (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) وهذا الخروج الذي لا يكون قد علم جل وعلا أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ).

ويستوي في علم الله السر والعلانية ، والصغير والكبير والغيب والشهادة.

قال تعالى (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى).

وقال تعالى (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً).

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ. سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ).

وعلم الله لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان.

قال تعالى (... قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى).

وقال تعالى (... وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً).

أما علم ابن آدم فمسبوق بجهل ويلحقه نسيان كما قال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً).

علمنا قليل بالنسبة لعلم الله.

قال تعالى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً).

فائدة : ٢

الآثار المترتبة من علمنا بهذه الصفة:

أولاً: الخوف من الله وخشيته ، ومراقبته في السر والعلن ، لأن العبد إذا أيقن أن الله تعالى عالم بحاله مطلع على باطنه وظاهره ، فإن ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله ظاهراً وباطناً.

ثانياً: اليقين بشمول علم الله تعالى لكل شيء في السماوات والأرض ، وللبواطن والظواهر ، يثمر في قلب العبد تعظيم الله تعالى وإجلاله والحياء منه ، كما يعين على التخلص من الآفات القلبية التي تخفى على الناس ولكنها لا تخفى على الله كآفة الرياء والحسد والغل والعجب والكبر.

ثالثاً: إن يقين العبد بعلم الله تعالى الشامل لكل شيء ، ومن ذلك علمه سبحانه بحال عبده المصاب وما يقاسيه من الآلام ، إن ذلك يثمر في القلب الرجاء والأنس بالله ويدفع اليأس والقنوط من القلب.

رابعاً: ونستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء: وجوب مراقبة الله، لأن العاقل إذا علم أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء، فسوف يراقب ربه، بلسانه وجنانه وأركانه، فبلسانه: لا ينطق بما حرم الله، وبجنانه: لا يعتقد بقلبه خلاف الحق، وبجوارحه: لا يستعملها في المحرمات، فيستعمل العين في النظر إلى الحرام ، ويستعمل اليد في البطش الحرام، ويستعمل الآذان في السماع الحرام.

وأيضاً نستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء: الرغبة والنشاط والرجاء، لأن الإنسان يعلم أن الله يعلم بكل أعماله الصالحة، وأنه لن يضيع منها شيء.

فائدة : ٣

في الآية دليل لمرتبتين من مراتب الإيمان بالقدر :

فإن مراتب القدر أربعة:

أولاً: الإيمان بأن الله علم بكل شيء جملة وتفصيلاً ، أزلاً وأبداً.

قال تعالى (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وقال تعالى (وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً).

ثانياً: الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ.

كما قال تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا).

وقال ﷺ (إن الله كتب مقادير السموات والأرض قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة) رواه مسلم.

وفي هذين الأمرين يقول الله تعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

الثالث: الإيمان بأن جميع الكائنات لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى.

قال تعالى (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) .

وقال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً).

وقال تعالى (وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).

وقال تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون).

الرابع: الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله.

قال تعالى (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ).

وقال تعالى (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ).

وقال تعالى (الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ).

فائدة : ٤

اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق؛ سماه في القرآن :

بالكتاب :

كما في هذه الآية .

وفي قوله تعالى (وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) أ

وبالإمام المبين .

كما في قوله تعالى (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ).

وبالكتاب المسطور .

كما في قوله تعالى (وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ).

وبأم الكتاب .

كما قال تعالى (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ).

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١)) .

[الحج : ٧١] .

=========

(**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**) أي : ويَعبُدُ المشرِكونَ مِن دونِ اللهِ أصنامًا لم يُنَزِّلِ اللهُ على رُسُلِه حُجَّةً على صِحَّةِ عبادتِها .

قال ابن كثير : يَعْنِي حُجَّةً وَبُرْهَانًا ، كَقَوْلِهِ تعالى (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لَا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ) .

(**وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ**) أَيْ : وَلَا عِلْمَ لَهُمْ فِيمَا اخْتَلَقُوهُ وَائْتَفَكُوهُ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ تَلَقَّوْهُ عَنْ آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ، وَأَصْلُهُ مِمَّا سَوَّلَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ وَزَيَّنَهُ لَهُمْ.

(**وَمَا لِلظَّالِمِينَ**) أي : المشركين ، فإن الشرك أعظم الظلم .

فالشرك أعظم الظلم، لأن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والمشرك ظالم، لأنه وضع العبادة التي هي حق لله تعالى وحده، وضعها في المخلوق الضعيف الفقير أو وضعها لصنم أو حجر أو شجر، ولأجل هذا البيان فإن القرآن يكثر الله فيه إطلاق الظلم على الشرك، كما قال تعالى عن العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم)، وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال: بشرك، ثم تلا قول لقمان (إن الشرك لظلم عظيم)، وقال تعالى (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين) أي: من المشركين.

والظلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الشرك.

وهو أعظم الظلم وأشده.

كما قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ).

وقال تعالى (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) أي: من المشركين.

قال ابن رجب: فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق ، فعبده وتألهه ، فوضع الأشياء في غير موضعها ، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين ، إنما أريد به المشركون كما قال الله تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

والثاني: ظلم العبد نفسه بالمعاصي.

كما قال تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ).

والثالث: ظلم العبد لغيره.

كما في الحديث (قال الله تعالى: إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) رواه مسلم.

وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا) متفق عليه.

وعن ابن عمر. قال: قال ﷺ (الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه.

(**مِن نَّصِيرٍ**) أَيْ : مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُمْ مِنَ اللَّهِ فِيمَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ .

الفوائد :

١. تسفيه عقول المشركين في عبادتهم من دون الله ما لم ينزل به حجة .

٢. عبادة غير الله دليل على قلة العلم والعقل .

٣. الشرك أعظم الظلم .

٤. تهديد شديد للمشركين وأن الله سيعاقبهم وليس لهم نصير .

٥. تهديد لكل ظالم .

(**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)**) .

[الحج : ٧٢] .

=========

(**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ**) أي: وإذا تُتلى على المشرِكينَ آياتُ القُرآنِ، والحالُ أنَّها واضِحاتُ الحُجَجِ والدَّلالةِ على توحيدِ اللهِ، وصِدقِ رَسولِه

قال ابن عاشور : الآيات هي القرآن لا غيره من المعجزات لقوله (وإذا تتلى عليهم) .

وتقييد الآيات بوصف البينات لتفظيع إنكارها إياها ، إذ ليس فيها ما يعذر به منكروها.

(**تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ**) أي : ترى في وجوه الكفار الإنكار بالعبوس والكراهة .

قال ابن الجوزي : والمنكر هاهنا بمعنى الإنكار ، فالمعنى : أثر الإنكار من الكراهة ، وتعبيسُ الوجوه ، معروف عندهم.

وقال القرطبي : (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر) أي الغضب والعُبوس.

(**يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا**) أي : يكادون يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم القرآن .

قال البقاعي : (يكادون يسطون) أي يوقعون السطوة بالبطش والعنف (بالذين يتلون عليهم آياتنا) أي الدالة على أسمائنا الحسنى ، وصفاتنا العلى ، القاضية بوحدانيتنا ، مع كونها بينات في غاية الوضوح في أنها كلامنا ، لما فيها من الحكم والبلاغة التي عجزوا عنها.

قال القرطبي : السطوة شدّة البطش ؛ يقال : سطا به يسطو إذا بطش به ؛ كان ذلك بضرب أو بشتم ، وسطا عليه.

قال ابن كثير : أَيْ يَكَادُونَ يُبَادِرُونَ الَّذِينَ يَحْتَجُّونَ عَلَيْهِمْ بِالدَّلَائِلِ الصَّحِيحَةِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَبْسُطُونَ إِلَيْهِمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ

وقال ابن عاشور : والسُّطُوّ البطش، أي يقاربون أن يصولوا على الذين يتلون عليهم الآيات من شدّة الغضب والغيظ من سماع القرآن.

(**قُلْ**) لهم يا محمد ، لهؤلاء الظالمين الكارهين لتلاوة القرآن الكريم عليهم .

(**أَفَأُنَبِّئُكُم**) الهمزة للاستفهام ، وفيه تهكم .

(**بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ**) الإشارة إلى ما أثار نكرهم وغضبهم وحفيظتهم ، أي : إذا كنتم تستاؤون عند تلاوة القرآن الكريم وتكرهون ذلك ويغيظكم ، فأخبركم بما هو شر لكم من ذلكم .

(**النَّارُ**) وعذابها الشديد ، فمآلكم ومصيركم إليها .

(**وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا**) بالله وبرسوله .

(**وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**) أي : وبئس المآل والمنزل والمقام النار .

كما قال تعالى (إنها ساءت مستقراً ومقاماً) .

الفوائد :

١. أن آيات الله الشرعية كلها بينات وواضحات .

٢. شدة تنكر الكفار لآيات الله وكراهتهم لها .

٣. المؤمن يفرح ويخشع عند سماعه آيات الله بخلاف الكافر يشمئز وينكر .

٤. بغض آيات الله كفر .

٥. التهكم بالكافرين وتهديدهم بالنار .

٦. بئس المأوى والمرجع النار .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)) .

[الحج : ٧٣] .

==========

قال الرازي : اعلم أنه سبحانه لما بين من قبل أنهم يعبدون من دون الله مالا حجة لهم فيه ولا علم ، ذكر في هذه الآية ما يدل على إبطال قولهم .

قال السعدي : هذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع .

يقول تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى حَقَارَةِ الْأَصْنَامِ وَسَخَافَةِ عُقُولِ عَابِدِيهَا :

(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ**) أَيْ لِمَا يَعْبُدُهُ الْجَاهِلُونَ بِاللَّهِ الْمُشْرِكُونَ بِهِ .

هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علما وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة . (السعدي) .

(**فَاسْتَمِعُوا لَهُ**) أَيْ أَنْصِتُوا وَتَفَهَّمُوا .

قال الرازي : أي تدبروه حق تدبره لأن نفس السماع لا ينفع ، وإنما ينفع التدبر.

وقال السعدي : أي ألقوا إليه أسماعكم، وتفهموا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلوبا لاهية، وأسماعا معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع .

(**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**) كالأصنام والأوثان ، ويشمل كل ما يدعى من دون الله .

(**لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً**) الذي هو من أحقر المخلوقات وأضعفها ، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب أولى .

(**وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ**) أَيْ لَوِ اجْتَمَعَ جَمِيعُ مَا تَعْبُدُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عَلَى أَنْ يَقْدِرُوا عَلَى خَلْقِ ذُبَابٍ وَاحِدٍ مَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ.

(**وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ**) أَيْ : هُمْ عَاجِزُونَ عَنْ خَلْقِ ذُبَابٍ وَاحِدٍ، بَلْ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ عَاجِزُونَ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ وَالِانْتِصَارِ مِنْهُ لَوْ سَلَبَهَا شَيْئًا مِنَ الَّذِي عَلَيْهَا مِنَ الطِّيبِ، ثُمَّ أَرَادَتْ أَنْ تَسْتَنْقِذَهُ مِنْهُ لَمَا قَدَرَتْ عَلَى ذَلِكَ، هَذَا وَالذُّبَابُ مِنْ أَضْعَفِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ وَأَحْقَرِهَا !

وهذا غاية ما يصير من العجز.

قال البقاعي : (شيئاً) من الأشياء جل أو قل مما تطلونهم به من الطيب أو تضعونه بين أيديهم من الأكل أو غيره .

قال الرازي : واعلم أن الذباب لما كان في غاية الضعف احتج الله تعالى به على إبطال قولهم .

قال الماوردي : وخص الذباب لأربعة أمور تخصه : لمهانته وضعفه واستقذاره وكثرته ، وسُمِّي ذباباً لأنه يُذَبُّ احتقاراً واستقذاراً.

وقال ابن عطية : وذكر تعالى أمر سلب الذباب لأنه كان كثيراً محسوساً عند العرب ، وذلك أنهم كانوا يضمخون أوثانهم بأنواع الطيب فكان الذباب يذهب بذلك وكانوا متألمين من هذه الجهة فجعلت مثلاً .

(**ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الطَّالِبُ الصَّنَمُ، وَالْمَطْلُوبُ الذُّبَابُ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَهُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ.

وأضعف منهما، من يتعلق بهذا الضعيف، وينزله منزلة رب العالمين.

قال الرازي : (ضَعُفَ الطالب والمطلوب) ففيه قولان :

أحدهما : المراد منه الصنم والذباب فالصنم كالطالب من حيث إنه لو طلب أن يخلقه ويستنقذ منه ما استلبه لعجز عنه والذباب بمنزلة المطلوب .

الثاني : أن الطالب من عبد الصنم ، والمطلوب نفس الصنم أو عبادتها ، وهذا أقرب لأن كون الصنم طالباً ليس حقيقة بل هو على سبيل التقدير .

الفوائد :

١. أن الخالق هو الله .

٢. أن من لا يخلق لا يستحق أن يعبد .

٣. تسفيه وتحقير من يعبد غير الله .

٤. بطلان الشرك .

٥. تلاعب الشيطان بالمشركين .

٦. هذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم .

(مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)) .

[الحج : ٧٤] .

=========

(مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) أي: ما عظموه حق تعظيمه، حيث جعلوا هذه الأصنام على نهاية خساستها شريكة له في المعبودية.

قال السعدي : حيث سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه، سوى من لا يملك لنفسه، ولا لغيره نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف.

قال الشنقيطي : ما عظموه حق عظمته حين عبدوا معه من لا يقدر على خلق ذباب ، وهو عاجز أن يسترد من الذباب ما سلبه الذباب منه ، كالطيب الذي يجعلونه على أصنامهم ، إن سلبها الذباب منه شيئاً لا تقدر على استنقاذه منه ، وكونهم لم يعظموا الله حق عظمته ، ولم يعرفوه حق معرفته ، حيث عبدوا معه من لا يقدر على جلب نفع ، ولا دفع ضر. ذكره تعالى في غير هذا الموضع كقوله في الأنعام (وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ الله على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ) وكقوله في الزمر (وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكون) .

(إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ) كامل القوة ، لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب ، ولا يرد قضاءه راد ، ينفذ أمره ويمضي قضاءه في خلقه . فهو القوي في بطشه ، إذا بطش بشيء أهلكه .

(عَزِيزٌ) اسم من أسماء الله وهو: العزيز ، وهو متضمن لصفة العزة الكاملة لله ، وهي ثلاثة أنواع:

- عزة القدْر: بمعنى أن الله ذو قدْر شريف عظيم ، كما قال النبي ﷺ (السيد الله).
- وعزة القهر: بمعنى أن الله القاهر لكل شيء ، لا يُغلب ، كما قال تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ).
- وعزة الامتناع: بمعنى أنه يمتنع أن يناله أحد بسوء أو نقص.

قال السعدي: (العزيز) الذي له العزة كلها: عزة القوة ، وعزة الغلبة ، وعزة الامتناع ، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات ، وقهر جميع الموجودات ، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته.

وقال السعدي : ومن كمال قوته وعزته، أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بإرادته ومشيئته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن كمال قوته، أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا ومن كمال قوته، أنه يبعث الخلق كلهم، أولهم وآخرهم، بصيحة واحدة، ومن كمال قوته، أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية، بشيء يسير، وسوط من عذابه.

الفوائد :

١. وجوب تعظيم الله .

٢. من تعظيم الله تعظيم أوامره ونواهيه .

٣. من عبد غير الله أو اعتمد على غيره لم يقدر الله حق قدره .

(**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥)**) .

[الحج : ٧٥] .

==========

(**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا**) أي : أن الله وحده يختار من بين ملائكته رسلاً يرسلهم لتبليغ وحيه إلى أنبيائه ، كما اختار جبريل عليه السلام لهذه الوظيفة .

(**وَمِنَ النَّاسِ**) أي : وهو الذي يختار من بين الناس رسلاً ، كما اختار إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم لهذه المهمة .

قال الآلوسي : (الله يَصْطَفِى) أي يختار (مِنَ الملائكة رُسُلاً) يتوسطون بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام بالوحي (وَمِنَ الناس) أي ويصطفى من الناس رسلاً يدعون من شاء إليه تعالى ويبلغونهم ما نزل عليهم والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته ، وتقديم رسل الملائكة عليهم السلام لأنهم وسائط بينه تعالى وبين رسل الناس .

(**إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ**) لأقوال عباده .

والسميع: اسم من أسماء الله تعالى ، متضمن لصفة السمع لله تعالى ، فهو سبحانه يسمع جميع الأقوال والأصوات ، السر والجهر عنده سواء.

كما قال تعالى (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ).

وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى).

وقال تعالى (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

وقال تعالى (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ).

(**بَصِيرٌ**) بأحوالهم لا تخفى عليه خافية من شؤونهم .

فالله بصير بأحوال عباده خبير بها، بصير بمن يستحق الهداية منهم ممن لا يستحقها، بصير بمن يصلح حاله بالغنى والمال، وبمن يفسد حاله بذلك (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ).

الفوائد :

١. حكمة الله ، فالله له الحكمة العظمى .

٢. أن أفعال الله كلها مبنية على الحكمة .

٣. حكمة الله في اختيار رسله وأنبياؤه .

٤. الإيمان والرضى بحكمة الله وقدره وقضائه .

(**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦)**) .

[الحج : ٧٦] .

==========

(**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**) أي: يعلَمُ الله ما يَستَقبِلُه الخلائِقُ ممَّا يكونُ في الآخرةِ، ويعلَمُ ما مضَى وراءَهم مِن أمورِ الدُّنيا وأعمالِهم فيها .

فالمعنى : (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) يعني الآخرة لأنهم يُقدِمون عليها (وَمَا خَلْفَهُمْ) من الدنيا لأنهم يخلفونها وراء ظهورهم.

وقيل: (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) بعد انقضاء آجالهم (وَمَا خَلْفَهُمْ) أي: ما كان من قبل أن يخلقهم، وقيل: ما فعلوا من خير وشر وما يفعلونه بعد ذلك.

والمراد من الآية: أن الله يعلم كل شيء من ماض ومستقبل، وأن علمه شامل لكل شيء سبحانه وتعالى.

قال ابن كثير: دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

(**وَإِلَى اللَّهِ**) وحده .

(**تُرْجَعُ الْأُمُورُ**) كلها لا إلى غيره .

الفوائد :

١. عموم علم الله تعالى .

٢. وجوب تعظيم الله .

٣. الخوف من معصية الله .

٤. الترغيب الشديد في إخلاص العمل لله تعالى .

٥. جميع الأمور مرجعها إلى الله وحده ، بل الناس يرجعون إلى الله يوم القيامة .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨))

[الحج : ٧٧ – ٧٨] .

==========

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**) تصدير الخطاب بهذا النداء فيه ثلاثة فوائد:

الأولى: العناية والاهتمام به والتنبيه.

الثانية: الإغراء، وأن من يفعل ذلك فإنه من الإيمان، كما تقول يا ابن الأجود جُد.

الثالثة: أن امتثال هذا الأمر يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان. (ابن عثيمين).

والمعنى:: يا أيها الذين آمنوا بقلوبهم وانقادوا وعملوا بجوارحهم.

(**ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا**) أي : صلوا لربكم خاشعين .

قال ابن الجوزي : قال المفسرون : المراد : صلُّوا ، لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود ، وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما أشرف أركان الصلاة .

وقال الخازن : يعني صلوا لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود .

(**وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ**) أي: اخضعوا وذلوا لله سبحانه وتعالى، وأصل العبادة في لغة العرب: الذل والخضوع، وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده، فالعبادة: الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة، فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة، لأن الإنسان إذا كان ذله متجرداً عن محبة الله يُبغض الذي هو يذل له، ومن أبغض ربه هلك، وإذا كانت محبةً خالصة لا خوف معها، فإن المحب الذي لا يُداخله خوف يحمله الدلال على أن يسيء الأدب، ويرتكب أموراً لا تنبغي، والله عز وجل لا يليق به شيء من ذلك (قاله الشنقيطي).

– فالعبادة تطلق على معنيين: أحدهما: التعبد: يعني التذلل لله، كما سبق، وتطلق على المتعبد به (بالنسبة لأفعال العباد) وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة القلبية والجوارحية.

– وفي هذه الآية وجوب عبادة الله عز وجل، وأنها دعوة الرسل جميعاً، وأول ما يبدا به.

(**وَافْعَلُوا الْخَيْرَ**) **أي**: وافعَلوا –أيُّها المؤمِنونَ– أنواعَ الخَيراتِ مِمَّا أمَرَكم اللهُ به .

قال ابن عاشور : فيه أمرٌ بإسداءِ الخَيرِ إلى النَّاسِ مِنَ الزَّكاةِ، وحُسنِ المعامَلةِ؛ كصِلةِ الرَّحِمِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المنكَرِ، وسائرِ مَكارِمِ الأخلاقِ، وهذا مُجمَلٌ بيَّنَتْه وبيَّنَت مراتِبَه أدِلَّةٌ أُخرى .

وفي الآية الحث على فعل المعروف بأنواعه.

قال تعالى (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

قال ﷺ (لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق).

وقال ﷺ (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان ...).

وقال ﷺ (كل معروف صدقة).

قال الضحاك في قوله تعالى (إنا نراك من المحسنين) – في قصة يوسف عليه السلام – كان إحسانه إذا مرض رجل في السجن قام عليه، وإذا ضاق عليه المكان وسع له إذا احتاج جمع سأل له.

وقيل لابن المنكدر أي الأعمال أفضل؟ قال: إدخال السرور على المؤمن. قيل أي الدنيا أحب إليك؟ قال الإفضال على الإخوان، أي التفضل عليهم والقيام بخدمتهم.

وقال وهب بن منبه: إن أحسن الناس عيشاً من حسن عيش الناس في عيشه وإن من ألذ اللذة الإفضال على الإخوان.

– ثمرات فعل المعروف:

أولاً: صرف البلاء.

قال ﷺ (من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة) رواه مسلم.

وقال خديجة للنبي ﷺ لما جاءها وهو يقول زملوني قالت (كلا والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).

وفي الحديث (صنائع المعروف تقي مصارع السوء) رواه الطبراني.

ثانياً: دخول الجنة.

قال ﷺ (لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَرِيقِ كَانَتْ تُؤذِي المسْلِمِين) رواه مسلم.

ثالثاً: مغفرة الذنوب والنجاة من أهوال الآخرة.

وعن أَبي هريرة ﷺ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَال (كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، وَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِراً فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللهَ أنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَلَقِيَ اللهَ فَتَجَاوَزَ عَنْه) متفقٌ عَلَيْهِ.

وقال ﷺ (بَينَما رَجُلٌ يَمشي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيهِ العَطَشُ، فَوَجَدَ بِئراً فَنَزَلَ فِيهَا فَشربَ، ثُمَّ خَرَجَ فإذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يأكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبُ مِنَ العَطَشِ مِثلُ الَّذِي كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنِّي فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أمْسَكَهُ بفيهِ حَتَّى رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ الله لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ) متفق عليه.

(**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**) أي: تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتنجون من المكروه المرهوب، فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق، والسعي في نفع عبيده، فمن وفق لذلك، فله القدح المعلى، من السعادة والنجاح والفلاح.

علَّق تعالى الفَلاحَ على هذه الأمورِ، فلا طريقَ للفَلاحِ سوِى الإخلاصِ في عبادةِ الخالِقِ، والسَّعيِ في نَفعِ عَبيدِه، فمن وُفِّقَ لذلك فله القِدْحُ المعَلَّى مِنَ السَّعادةِ والنَّجاحِ والفَلاحِ

(**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ**) قيل : المراد الجهاد في سبيل الله .

قال ابنُ جرير: والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك: قَولُ مَن قال: عنى به الجِهادَ في سَبيلِ اللهِ؛ لأنَّ المعروفَ مِن الجِهادِ ذلك، وهو الأغلَبُ على قَولِ القائِلِ: جاهَدْتُ في اللهِ .

وقيل: هو إشارةٌ إلى امتِثالِ جميعِ ما أمَرَ اللهُ به، والانتهاءِ عن كُلِّ ما نهى اللهُ عنه، أي: جاهِدوا أنفُسَكم في طاعةِ اللهِ، ورُدُّوها عن الهوى، وجاهِدوا الشَّيطانَ في رَدِّ وَسوَستِه، والظُّلَمةَ في رَدِّ ظُلْمِهم، والكافِرينَ في رَدِّ كُفرِهم .

واختار العموم : الزمخشريُّ، والرازي، وأبو حيان، والبقاعي، والسيوطي، والقاسمي، والسعدي.

قال الرازي : قيل : أن المراد قتال الكفار خاصة ، ومعنى (حَقَّ جهاده) أن لا يفعل إلا عبادة لا رغبة في الدنيا من حيث الاسم أو الغنيمة .

وقيل : أن يجاهدوا آخراً كما جاهدوا أولاً .

وقيل : مجاهدة النفس والهوى.

والأولى أن يحمل ذلك على كل التكاليف ، فكل ما أمر به ونهى عنه فالمحافظة عليه جهاد.

قال القرطبي : قوله تعالى (وَجَاهِدُوا فِي الله حَقَّ جِهَادِهِ) .

قيل : عنى به جهاد الكفار.

وقيل : هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به ، والانتهاء عن كل ما نهى الله عنه ؛ أي جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردّها عن الهوى ، وجاهدوا الشيطان في ردّ وسوسته ، والظَّلمةَ في رد ظلمهم ، والكافرين في ردّ كفرهم.

قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) .

وعن أنسٍ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال (جاهِدوا المشرِكينَ بأموالِكم وأنفُسِكم وألسِنَتِكم) .

وعن فَضالةَ بنِ عُبَيدٍ ﷺ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال (المجاهِدُ مَن جاهَدَ نَفسَه) .

(حق جهاده) باستِفراغِ الطَّاقةِ في إيقاعِ كُلِّ ما أمَرَ به؛ مِن جِهادِ العَدُوِّ والنَّفْسِ على الوَجهِ الذي أمَرَ به من الحَجِّ والغَزْوِ وغَيرِهما جِهادًا يليقُ بما أفهَمَتْه الإضافةُ إلى ضميرِه سُبحانَه مِن الإخلاصِ والقُوَّةِ؛ فإنَّه يُهلِكُ جَميعَ مَن يَصُدُّكم عن شَيءٍ منه . (البقاعي)

وقال البغوي: قال أكثَرُ المفَسِّرينَ: حَقُّ الجهادِ أن تكونَ نيَّتُه صادِقةً خالِصةً لله عَزَّ وجلَّ .

وقال الخازن : وقال أكثر المفسرين حق الجهاد أن يكون بنية صادقة خالصه لله ولتكون كلمة الله هي العليا بدليل قوله ﷺ : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) .

(**هُوَ اجْتَبَاكُمْ**) أَيْ : يَا هَذِهِ الْأُمَّةُ اللَّهُ اصْطَفَاكُمْ وَاخْتَارَكُمْ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، وَفَضَّلَكُمْ وَشَرَّفَكُمْ وَخَصَّكُمْ بِأَكْرَمِ رَسُولٍ وَأَكْمَلِ شَرْعٍ .

(**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**) أَيْ : مَا كَلَّفَكُمْ مَا لا تطيقون وما ألزمكم بشيء يشق عَلَيْكُمْ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، فَالصَّلَاةُ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ تَجِبُ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا، وَفِي السَّفَرِ تقصر إلى اثنتين، وَفِي الْخَوْفِ يُصَلِّيهَا بَعْضُ الْأَئِمَّةِ رَكْعَةً، كَمَا وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ، وَتُصَلَّى رِجَالًا وَرُكْبَانًا مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةَ وَغَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا، وَكَذَا فِي النَّافِلَةِ فِي السَّفَرِ إِلَى الْقِبْلَةِ وَغَيْرِهَا، وَالْقِيَامُ فِيهَا يَسْقُطُ لعذر الْمَرَضِ، فَيُصَلِّيهَا الْمَرِيضُ جَالِسًا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الرُّخَصِ وَالتَّخْفِيفَاتِ فِي سَائِرِ الْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ .

وَلِهَذَا قَالَ عليه السلام (بعثت بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ) .

وَقَالَ لِمُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَى حِينَ بَعَثَهُمَا أَمِيرَيْنِ إِلَى الْيَمَنِ (بَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا) .

وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ يَعْنِي مِنْ ضِيقٍ. (ابن كثير)

قال القرطبي : وهذه الآية تدخل في كثير من الأحكام ؛ وهي مما خص الله بها هذه الأمة.

(**مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ**) أي: وما جعَلَ عليكم في الدِّينِ مِن حَرَجٍ، بل وسَّعه كمِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ .

وقيل: المرادُ اتَّبِعوا والْزَموا مِلَّةَ أبيكم إبراهيمَ.

(**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا**) أي: اللهُ سمَّاكم المسلِمينَ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ في كُتُبِ الأنبياءِ السَّابقةِ، وسمَّاكم المسلِمينَ أيضًا في هذا القُرآنِ .

قال ابن الجوزي : قوله تعالى (هو سمَّاكم المسلمين) في المشار إليه قولان.

أحدهما : أنه الله عز وجل .

قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والجمهور .

والثاني : أنه إبراهيم عليه السلام حين قال (وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) فالمعنى: من قَبْل هذا الوقت، وذلك في زمان إبراهيم عليه السلام وفي هذا الوقت حين قال (ومن ذريتنا أمة مسلمة) هذا قول ابن زيد.

والراجح الأول ، ورجحه :

الرازي فقال : والثاني : أن الكناية راجعة إلى الله تعالى .

فروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : "إن الله سماكم المسلمين من قبل" أي في كل الكتب ، وفي هذا أي في القرآن.

وهذا الوجه أقرب لأنه تعالى قال (لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس) فبين أنه سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق إلا بالله، ويدل عليه أيضاً قراءة أبي بن كعب (الله سماكم) والمعنى أنه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن، وفي القرآن أيضاً بين فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم ، لأجل الشهادة المذكورة.

وقال الثعلبي : (هُوَ) يعني الله سبحانه وتعالى (سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ) يعني من قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة (وَفِي هذا) الكتاب هذا قول أكثر المفسرين.

وقال الشنقيطي : قَوْلُهُ تَعَالَى (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا) اخْتُلِفَ فِي مَرْجِعِ الضَّمِيرِ الَّذِي هُوَ لَفْظُ هُوَ مِنْ قَوْلِهِ (هُوَ سَمَّاكُمُ) :

فَقَالَ بَعْضُهُمْ : اللَّهُ هُوَ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ فِي هَذَا .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ هُوَ أَيْ : إبْرَاهِيمُ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ، وَاسْتَدَلَّ لِهَذَا بِقَوْلِ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ (وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) وَبِهَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، كَمَا نَقَلَهُ عَنْهُ ابْنُ كَثِيرٍ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ قَرِينَتَانِ تَدُلَّانِ عَلَى أَنَّ قَوْلَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ غَيْرُ صَوَابٍ .

إحْدَاهُمَا : أَنَّ اللَّهَ قَالَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا، أَيِ : الْقُرْآنِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ إبْرَاهِيمَ لَمْ يُسَمِّهِمُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْقُرْآنِ، لِنُزُولِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ بِأَزْمَانٍ طَوِيلَةٍ كَمَا نَبَّهَ عَلَى هَذَا ابْنُ جَرِيرٍ .

الْقَرِينَةُ الثَّانِيَةُ : أَنَّ الْأَفْعَالَ كُلَّهَا فِي السِّيَاقِ الْمَذْكُورِ رَاجِعَةٌ إلَى اللَّهِ، لَا إلَى إبْرَاهِيمَ، فَقَوْلُهُ (هُوَ اجْتَبَاكُمْ) أَيِ: اللَّهُ، (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) أَيِ: اللَّهُ، (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ) أَيِ: اللَّهُ .

فَإِنْ قِيلَ : الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ ، وَأَقْرَبُ مَذْكُورٍ لِلضَّمِيرِ الْمَذْكُورِ : هُوَ إبْرَاهِيمُ .

فَالْجَوَابُ : أَنَّ مَحَلَّ رُجُوعِ الضَّمِيرِ إلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ مَحَلُّهُ مَا لَمْ يَصْرِفْ عَنْهُ صَارِفٌ، وَهُنَا قَدْ صَرَفَ عَنْهُ صَارِفٌ: لِأَنَّ قَوْلَهُ «وَفِي هَذَا» يَعْنِي الْقُرْآنَ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالَّذِي سَمَّاهُمُ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ: هُوَ اللَّهُ لَا إبْرَاهِيمُ، وَكَذَلِكَ سِيَاقُ الْجُمَلِ الْمَذْكُورَةِ قَبْلَهُ .

(**لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ**) أي: اجتَباكم اللهُ وفضَّلَكم، ونَوَّهَ باسمِكم؛ لِيَكونَ الرَّسولُ –الذي هو خَيرُكم– شَهيدًا عليكم يومَ القيامةِ أنَّه قد بلَّغكم رسالةَ ربِّه .

(**وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**) أي : وتكونوا شُهَداءَ على جَميعِ الأُمَمِ أنَّ رُسُلَهم قد بلَّغُوهم ما أرسَلَهم اللهُ به .

كما قال سُبحانَه (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) .

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ، قال: قال رَسولُ اللهِ ﷺ (يُدعَى نوحٌ يَومَ القيامةِ، فيَقولُ: لبَّيكَ وسَعْديكَ يا رَبِّ، فيقولُ: هل بلَّغْتَ؟ فيقولُ: نعَمْ، فيُقالُ لأُمَّتِه: هل بلَّغَكم؟ فيقولونُ: ما أتانا مِن نَذيرٍ! فيقولُ: مَن يَشهَدُ لك؟ فيقولُ: مُحَمَّدٌ وأمَّتُه. فتَشهَدونَ أنَّه قد بلَّغَ: وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) .

(**فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**) أي: قابِلُوا تلك النِّعمةَ العَظيمةَ بالقيامِ بشُكرِها، فأقيمُوا –أيُّها المسلِمونَ– الصَّلاةَ للهِ بحُدودِها وأركانِها، وأعطُوا زَكاةَ أموالِكم لِمُستحقِّيها .

كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والزكاة :

قيل: الصلاة رأس العبادات البدنية، والزكاة رأس العبادات المالية.

وقيل: الصلاة طهارة للنفس والبدن، والزكاة طهارة للمال.

قال السعدي: وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

(**وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ**) تمسكوا بالله وثقوا به وتوكلوا عليه .

وقد أمر الله بالاعتصام به:

فقال تعالى (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا).

وقال تعالى (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً).

(**هُوَ مَوْلَاكُمْ**) **الذي** يتولى أموركم وينصركم ويعزكم .

(**فَنِعْمَ الْمَوْلَى**) لمن تولاه .يتولاك وينفعك .

(**وَنِعْمَ النَّصِيرُ**) لمن استنصره وتوكل عليه .

فنعم المولى تبارك وتعالى ونعم النصير لمن عبده وتوكل عليه واعتصم به.

قال تعالى (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ).

وقال تعالى (بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ).

الفوائد :

١. تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والاهتمام .

٢. نداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريماً وتشريفاً .

٣. وجوب إقامة الصلاة .

٤. أهمية الصلاة .

٥. أن إقامة الصلاة من علامات الإيمان .

٦. فضل الركوع والسجود .

٧. دلالةٌ على أنَّ الركوعَ ركنٌ في الصلاةِ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ بالركوعِ، ومِن المعلومِ أنَّه لا يُشرَعُ لنا أنْ نركعَ ركوعًا مجرَّدًا، وإذا لم يُشرعْ لنا الرُّكوعُ المجرَّدُ وَجَب حَمْلُ الآيةِ على الرُّكوع الذي في الصلاةِ .

٨. وجوب عبادة الله .

٩. تحريم عبادة غير الله .

١٠. حث الإنسان على فعل الخير ولو كان صغيراً .

١١. أن هذه الأمور من أسباب الفلاح .

١٢. وجوب الجهاد حق الجهاد .

١٣. من أعظم الجهاد جهاد النفس والهوى .

١٤. نعمة الله تعالى على هذه الأمة حيث اجتباهم واختارهم واصطفاهم .

١٥. رفع الحرج عن هذه الأمة .

١٦. أخبر الله أنَّه ما جَعَلَ علينا في الدِّينِ مِن حَرَجٍ، ونفاه نفيًا عامًّا مؤكَّدًا، فمَنِ اعتقدَ أنَّ فيما أمَرَ اللهُ به مِثقالَ ذرَّةٍ مِن حَرَجٍ، فقد كَذَّبَ اللهَ ورَسولَه، فكيف بمَن اعتقدَ أنَّ المأمورَ به قد يكونُ فَسادًا وضَررًا لا مَنفعةَ فيه ولا مَصلحةَ لنا؟

١٧. بيانُ أنَّ هذه الحنيفِيَّةَ السَّمحةَ الَّتي جاءَ بها نبيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ، أنَّها مَبْنِيَّةٌ على التَّخفيفِ والتَّيسيرِ، لا على الضِّيقِ والحرجِ، وقد رَفَعَ اللَّهُ فيها الآصارَ والأغلالَ الَّتي كانت على مَنْ قبْلَنا.

١٨. المشقة تجلب التيسير .

١٩. شهادة الرسول ﷺ على أمته .

٢٠. شهادة هذه الأمة على الناس .

٢١. من شكر الله إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

٢٢. وجوب الاعتصام بالله .

٢٣. عظم مكانة الصلاة والزكاة من بين العبادات .

٢٤. أن الله تعالى مولى الذين آمنوا وحافظهم وناصرهم ومتولي أمورهم .